فإذا فني عن توهم الآثار من الأغيار بقي بصفات الحق، ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عينًا، ولا أثرًا، ولا رسمًا، ولا طللًا، يقال: إنه فني عن الخلق وبقي بالحق"[1]. وهو ما يسمى بالفناء عن شهود السّوى عند المتأخرين كما سيأتي، وفي هذا النوع من الفناء يزول إحساس الصوفي بالخلق وبوعيه، فلا يعود يُحسُّ بشيء من جوارحه ولا بنفسه ولا بالعالم الخارجي؛ ولذلك يقول القشيري: "وإذا قيل: فني عن نفسه وعن الخلق، فنفسه موجودة، والخلق موجودون؛ ولكنه لا علم له بهم، ولا به، ولا إحساس، ولا خبر، فتكون نفسه موجودة، والخلق موجودون، ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق أجمعين، غير محس بنفسه وبالخلق"[2].

ويحاول الصُّوفيّة أن يشرحوا سبب فقدان الشعور في مرحلة الفناء، وذلك بربطه بتجلي الله الخالق على العبد المخلوق، فيقول الخراز: "إن الله جلَّ ثناؤه لا يظهر إلى شيء على الكشف فيقوم له. أما ترى الجبل كيف دُكّ وقُطّع حين تجلّى له الجبار؟ وكيف خرّ موسى صعقًا؟"[3]. ثم يؤكد الصُّوفيّة أن حال الفناء ليس حالًا مرضيًا، فليس "الفاني بالمصعوق، ولا المعتوه، ولا الزائل عنه صفات البشرية؛ فيصير ملكًا أو روحانيًا؛ ولكنه فني عن شهود حظوظه"[4]. والفانون على قسمين: قسمٌ

(١) القشيري، الرسالة القشيرية ص ٣٧. الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٥٠.

(٢) وذلك كمن دخل على ذي سلطان في هيبته وعظمته فذهل عن كل الموجودين معه من وزرائه وحراسه، وما قصة صويحبات يوسف ببعيدة عن فهم ذلك حين قطّعن أيديهن عند رؤية يوسف عليه السلام وذهولهن بجماله وعظمته، فكيف بمن كُوشف بشهود الحق فهو أولى بالذهول عن كل ما سواه. انظر: الرسالة القشيرية ص ١٢٩.

(٣) د. محمد كمال جعفر، التصوف طريقًا وتجربة ومذهبًا ص ٢٣٤ عن كتاب الصفاء للخراز.

(٤) الكلاباذي، التعرف، الباب التاسع والخمسون ص ١٥٤.

ليس بإمام ولا قدوة للمسلمين، فيمكن أن نرى عليه أحوالاً غريبة تعد كأنها غيبة فيه مع أنه محفوظ في وظائف الحق عليه، وقسمٌ آخر هو إمام يُقتدى به ويُأخذ عنه، فهذا يُنقل إلى حالة البقاء، فيكون تصرفه بأوصاف الحق لا بأوصاف نفسه.

الفناء والتوحيد (أو الفناء في التوحيد):

يرى الجنيد أن التوحيد الحقيقي هو ثمرة الفناء عن كل ما سوى الله تعالى وليس فناء كل شيء؛ ولذلك عندما سُئل عن توحيد الخاصة قال: "أن يكون العبد شبحا بين يدي الله عزّ وجلّ، تجري عليه تصاريف تدبيره في مجاري أحكام قدرته، في لجج بحار توحيده، بالفناء عن نفسه، وعن دعوة الخلق له، وعن استجابته بحقائق وجود وحدانيته في حقيقة قربه، بذهاب حسه وحركته لقيام الحق له فيما أراد منه، وهو أن يرجع العبد إلى أوله فيكون كما كان قبل أن يكون"(1).

فالإمام الجنيد يشير إلى نوع خاص من التوحيد يقوم على أساس الفناء عن الإرادة الذاتية، والفناء عما سوى الله تعالى، ويستند في فكرته عن التوحيد والفناء، أو الفناء في التوحيد إلى قضية الميثاق التي وردت في القرآن الكريم، حيث خاطب الله تعالى الخلق قبل أن يخلقهم ويكونهم، أي خاطبهم تعالى في حال فنائهم عن ذواتهم، وهذا هو مقام الوحدانية، حيث يرجع آخر العبد في حال الفناء إلى أوله، فيكون" في الحقيقة كما كان قبل أن يكون، وهذا غاية حقيقة التوحيد للواحد، أن يكون العبد كما لم يكن، ويبقى الله تعالى كما لم يزل"(2).

---

(1) انظر الطوسي، اللمع ص ٤٩، ومن ذلك قوله أيضا: "التوحيد هو الخروج من ضيق رسوم الزمانية إلى سعة فناء السرمدية".

(2) الطوسي، اللمع ص٥٠، وللمزيد عن معاني الفناء عند الجنيد انظر كتاب الفناء له ضمن كتاب التصوف طريقا وتجربة د. محمد كمال جعفر ص٢١٣.

فهذا النوع من التوحيد هو أعلى درجات التوحيد عند الصُّوفيّة، وهو توحيد الخاصة منهم؛ لأنه توحيدٌ يفنى فيه كلُّ شيء سوى الله تعالى حتى يفنى العارف عن نفسه وعن توحيده؛ ولذلك قال أحمد ابن عطاء: "علامة حقيقة التوحيد نسيان التوحيد، وصدق التوحيد أن يكون القائم به واحداً"، ويقصد بذلك – كما ذكر الطوسي – أن ينسى العبد رؤية توحيده في توحيده برؤية قيام الله تعالى له بذلك قبل خلقه؛ لأنه لو لم يردهم بذلك ما أرادوه ولا وجدوه"[1].

ويتكلم الغزالي عن الفناء في التوحيد فيرى أن للتوحيد عند الصُّوفيّة معاني عدة، بل مراتب مختلفة يترقى فيها السالكون إلى الله تعالى؛ ولذلك فهو يقسم التوحيد إلى أربع مراتب:

المرتبة الأولى من التوحيد: هي أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله، وقلبه غافل عنه أو منكر له، وهذا هو توحيد الغافلين والمنافقين.

والثانية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين، وهذا هو اعتقاد العوام.

والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد سبحانه، بمعنى أنه لا يرى إلا فاعلا واحدا بالحقيقة؛ إذ قد انكشف له الحق كما هو عليه.

والرتبة الرابعة هي: ألا يرى في الوجود إلا واحدا، وهي مشاهدة الصديقين، وتسميه الصُّوفيّة الفناء في التوحيد؛ لأنه من حيث لا يرى إلا واحدا.

---

(١) السراج الطوسي، اللمع ص٤٩.

فلا يرى نفسه أيضاً، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده، فلا يرى نفسه ولا الخلق[1].

وهذه الرتبة الرابعة هي أعلى مراتب التوحيد؛ لأن الموحّد فيها كما يقول الغزالي: "لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير، بل من حيث إنه واحد، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد"[2]. ويعبر عن مثل هذه الحالة يعبر الصُّوفيّة بأنه قد فني صاحبها عن نفسه، وبالفناء عن غيره أولى، فيفنى بذلك عن كل شيء إلا عن الله الواحد؛ حتى يفنى عن شهوده وفنائه؛ لأن القلب إذا التفت إلى شهوده، وإلى نفسه بأنه مشاهد، فقد غفل عن الله المشهود فلا يصح له الفناء"..بل خمدت بالكلية بشريته، وفني التفاته إلى صفات البشرية رأساً، ولست أعني بفنائه فناء جسده، بل فناء قلبه"[3].

فالعارف الفاني يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله تعالى وأفعاله، فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل سبحانه، ويذهل عن الفعل نفسه من حيث كونه سماء وأرضاً، فإن نظر فيه، فمن حيث إنه صنع الواحد الحق فلا يجاوزه إلى غيره، ويكون بذلك هو الموحد الحق الذي لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله، حتى نفسه فلا ينظر إليها إلا من حيث كونه عبداً لله. وهذا هو الذي يستحق أن يقال فيه: إنه فني في التوحيد، وفني عن نفسه وهو الموحد حقاً[4].

---

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين ٤/٢٤٥.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين ٤/٢٤٦.

(3) الغزالي، إحياء علوم الدين ٢/٢٩١.

(4) وإلى ذلك يشيرون بقولهم: كنا بنا، ففنينا عنا، فبقينا بلا نحن. انظر الغزالي، إحياء علوم الدين ٤/٢٢٢.

ولكن الصُّوفيّة ربّما تصدر منهم أقوال توهم الاتحاد أو الحلول، فهم لا يؤاخذون بها، وإنّما تُعد شطحات زلّت بها ألسنتهم لغلبة أحوالهم وورادتهم من غير إرادتهم لها، ولكنّ ذلك مادامُوا يؤكدون على تنزيه الله تعالى ووحدانيته وقدمه ومخالفته للحوادث في حال صحوهم. وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون: "وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه، وصاحب الغيبة غير مخاطب، فمن عُلم منهم فضله واقتداؤه حُمل على القصد الجميل من هذا. فإن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها، كما وقع لأبي يزيد وأمثاله، ومن لم يُعلم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك؛ إذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه. وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسّه، ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضاً..."[1].

وأختم قضية الفناء بما ذهب إليه الدكتور حسن الشافعي من أن الفناء هو تجربة شهود واتصال وتوحيد، تثمر معارف يقينية بكل الحقائق الدينية التي سبق للسالك أن قبلها قبولاً ببديهة الفطرة، أوقلّد فيها غيره، أو أثبتها ببراهين العقل الرسمية الشكلية، ولكنه في هذه التجربة يراها بعين القلب، بغير طريق العقل، وبغير طريق النقل، وإنّما ثمرة تطبيقه للنقل وتحققه به[2].

المطلب الثالث – السعادة:

تُعدُّ السعادة هي أهم ثمرة من ثمرات المعرفة الصُّوفيّة، وهي الغاية التي يطمح إلى الوصول إليها العارفون، وقد خلق الله تعالى الإنسان، ودلّه على الطريق الذي

---

(١) ابن خلدون، المقدمة ص٤٧٤، ٤٧٥. وانظر: شفاء السائل ص٦٩.

(٢) انظر: الدكتور حسن الشافعي، فصول في التصوف ص٩٠.

بوصفه إلى هذه السعادة، وهيأه ومكّنه من الأدوات التي يصل بها إليها، فخلق له القلب الرباني وجعل سعادته في معرفة الله تعالى وقربه، وقد حدد الغزالي طريق السعادة وغايتها بقوله: "والقلب مخلوق لعمل الآخرة طلبا لسعادته، وسعادته معرفة ربه عزّ وجل"[(١)]. وهذه السعادة التي هي مطلوب الخلق أجمعين لا تُنال إلا بقرب الله عز وجل ولقائه والنظر إلى وجهه، ولا ينال ذلك إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق[(٢)]. وهذه المعرفة التي تبلغ غايتها ودرجاتها العليا في الطريق الصوفي عن طريق الكشف والمشاهدة لا تنال إلا بالعلم والعمل والسلوك؛ فتعين بذلك أنه عند الصُّوفيّة لا "طريق إلى السعادة إلا بالعلم والعمل"[(٣)].

ويبني الصُّوفيّة نظريتهم في السعادة – كما يوضح الغزالي – على اللّذة الخاصة من القوى والغرائز التي يتمتع بها الإنسان، فلكل قوة وغريزة لذة، ولذتها في نيلها ما يقتضي طبعها الذي خلقت له، وألمها في فقده؛ ولذلك يقول الغزالي: "اعلم أن سعادة كل شيء لذته وراحته، ولذة كل شيء تكون بمقتضى طبعه، وطبع كل شيء ما خلق له"[(٤)]. فهذه اللذات تابعة لإدراكات هذه القوى والغرائز الموافقة لطبعها، وبالتالي فإن سعادة العين – أي قوة البصر – في حصول لذتها، وهو ما يحقق مقتضى طبعها وهو الإبصار لكل ما هو حسن وجميل؛ وكذلك قوى السمع والشم وغرائز الجوع والغضب، فلكل قوة من قوى الإدراك هذه، ولكل غريزة من غرائز البدن لذة وسعادة تكمن في تحصيل طبعها على حسب مدركاتها

(١) الغزالي، كيمياء السعادة، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي ص ٤٢١.

(٢) انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين ٤/٢٥.

(٣) الغزالي، ميزان العمل ص١٧٩. وانظر منه "بيان أن طريق السعادة العلم والعمل" ص١٩٤.

(٤) الغزالي، كيمياء السعادة، ص ٤٢٦. وانظر: ابن خلدون، شفاء السائل ص٦، ٢٦، ٢٧

التي خصّها الله تعالى بها.

وبناءً على ذلك يقول الغزالي: "فكذلك في القلب غريزة ... وهذه الغريزة خُلقت ليُعلم بها حقائق الأمور كلها، فمقتضى طبعها المعرفة والعلم، وهي لذتها، كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها"[1]، "ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى؛ لأنه مخلوق لها ... وكذلك إذا وقع في معرفة الله سبحانه وتعالى فرح بها، ولم يصبر عن المشاهدة"[2]. إذا فنظرية السعادة الصُّوفيّة قائمة على أن لكل قوة وغريزة في الإنسان لذةً تتحقق بما يوافق طبعها، وإدراكاتها، والقلب قوةٌ خاصة من قوى الإدراك، خلقت للعلم والمعرفة، فلذتها في تحصيل العلم والمعرفة.

المطلب الرابع – السكينة والطمأنينة:

من ثمرات المعرفة الصُّوفيّة ومن غاياتها المنشودة الطمأنينة، وهي تعني: سكون القلب وراحته، وهي حال رفيع لا يكون إلا "لعبد رجح عقله، وقوي إيمانه، ورسخ علمه، وصفا ذكره، وثبت حقيقته"[3]. وهذه الصفات لا تكون إلا للعارفين الذين وصلوا إلى نهاية الطريق وتحققوا بمعرفه؛ ولذلك يقول أبو علي الدقاق رحمه الله: "المعرفة توجب السكينة في القلب، كما أن العلم يوجب السكون، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته"[4]. والسكينة هي من معاني الطمأنينة، كما أن الطمأنينة من معاني السكون، ويجعل الهروي السكينة على ثلاثة

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين ٤/٣٠٧، ٣٠٨.

(٢) الغزالي، كيمياء السعادة، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي ص ٤٢٦.

(٣) السراج الطوسي، اللمع ص٩٨.

(٤) أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف ص ٤١٨.

أقسام[1]، القسم الثالث منها: هو السكينة التي أنزلت في قلب النبي صلى الله عليه وسلم وقلوب المؤمنين، وهي عبارة عن نور وقوة وروح يسكن إليه الخائف ويتسلى به الحزين.

ومما يدلُّ أيضا على أن السكينة والطمأنينة هي من غايات المعرفة الصُّوفيّة وثمراتها قول الحسن بن علي الدامغاني حين سئل عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] فقال: "إن القلوب هشت، وبشت، وسكنت، واستأنست"، ثم بين معنى ذلك فقال: "هشت من معرفة جلال الله تعالى وعظمته، وبشت من معرفة رحمة الله وفضله، وسكنت من معرفة كفاية الله وصدقه، واستأنست من معرفة إحسان الله وفضله"[2].

وقد ربط الحسن الدامغاني الطمأنينة ومعانيها بجوانب معرفة الله عزّ وجلّ. وكذلك فعل الشبلي عندما سئل عن معنى الداراني رحمه الله: "النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت فقال: إذا عرفت من يقوتها اطمأنت"[3]. وهكذا فإن تحقق الصوفي بالطمأنينة يضفي عليه قوة نفسية وحالا قويا يسكن معه قلبه ويستأنس، ويهش ويبش لمعرفته بربه ويسرُّ ويفرح؛ ولذلك يقول ذو النون: "فإذا أنس بالله اطمأن إلى الله، فإذا اطمأن إلى الله، كان ليله في نعيم، ونهاره في نعيم، وسره في نعيم، وعلانيته في نعيم"[4].

---

(١) انظر: الهروي منازل السائرين ص ٨٣- ٨٦.

(٢) السراج الطوسي، اللمع ص ٩٨. والحسن الدامغاني من رجال القرن الرابع الهجري ولم أجد له ترجمة.

(٣) السراج الطوسي، اللمع ص ٩٨.

(٤) أبو نعيم، حلية الأولياء ٩/ ٣٦٠.

المطلب الخامس – التخلق بأخلاق الله تعالى:

من ثمرات المعرفة الصوفية وغايتها أيضا التخلق بالأخلاق الفاضلة المعتمدة على طهارة القلب ونقائه. ولا يصل الصوفي إلى هذه المعرفة إلا بطهارة القلب وصفائه أيضا. ولكنه إذا وصل إلى المعرفة ازداد قلبه نقاءً وإشراقا وتخلقا بما علم عن الله عز وجل من صفاته. وعرف من أخلاق الألوهية؛ ولذلك يصف ذو النون أخلاق العارفين قائلا: "معاشرة العارف كمعاشرة الله تعالى. يحتملك، ويحلم عنك. تخلقا بأخلاق الله الجميلة"[1].

أي إن العارف بالله تعالى وصفاته يتخلق بأخلاقه سبحانه فيكون رحيما، كريما، رؤوفا، صبورا إلى غير ذلك من الأخلاق والصفات الإلهية التي يمنُّ الله تعالى بها على العارفين به بعد أن عرفوا صفات الله تعالى بعلم اليقين وحق اليقين، فيعاملون الخلق بهذه الصفات استمدادا من صفات الله تعالى التي عرفوها. فمن عرف الله تعالى برحمته على خلقه وكرمه وجوده عليهم، مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم. كيف لا يتخلق بخلق الله تعالى ويكون رحيما بهم كريما عليهم جوادا! وكذلك من عرف الله تعالى بلطفه وعفوه ومغفرته على عباده، كيف لا يتخلق بخلق الله تعالى الذي ارتضاه لنفسه. فيكون عفوا لطيفا مسامحا! وهكذا في جميع الصفات التي يجوز للخلق أن يشتركوا بها مع ربهم في أسمائها – على الاشتراك اللفظي – دون حقيقتها.

وأما الصفات التي ارتضاها سبحانه لنفسه دون خلقه فلا يتصف بها العارفون، بل يتصفون ويتخلقون بضدها، لقوله صلى الله عليه وسلم: "العز

---

(1) أبو نعيم، حلية الأولياء ٩/٣٧٦، ٣٥١. القشيري، الرسالة القشيرية ص ٤١٩.

إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته»[1].

ولا يزال العارف يتخلق بالأخلاق الفاضلة حتى يكون كالأرض يطؤه البرُّ والفاجر، وكالسحاب يظلُّ كلَّ شيء، وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب[2]؛ ولذلك كانت غاية العارفين وعبادتهم أيضا هي التخلق بالأخلاق الفاضلة الجميلة. وهذا ما أوصى به يحيى بن معاذ الرازي (ت: ٢٥٨هـ) بقوله: "عبادة العارف في ثلاثة أشياء: [وهي] معاشرة الخلق بالجميل"[3].

وأخيرا يمكن القول أن هذه الفضائل التي ذكرتها هي أهم الغايات التي يسعى العارفون إلى الحصول عليها من خلال الطريق الصوفي المعرفي أو بعبارة أخرى هي أهم ثمرات المعرفة الصُّوفية وإن كانت هناك بعض الثمرات الأخرى التي يحصل عليها العارفون وهي كثيرة جدا.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر ٤/٢٠٢٣.

(٢) القشيري، الرسالة القشيرية ص ٤٢٠.

(٣) أبو نعيم، حلية الأولياء ١٠/٥٧.

الفصل الثالث

أنموذج من قواعد التزكية

مختارات من شرح الحكم العطائية

للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله

الحكمة التاسعة

الحكمة الثالثة عشرة

الحكمة الثامنة والستون

الحكمة الرابعة والأربعون بعد المئة

الحكمة الثالثة والسبعون بعد المئة

الحكمة التاسعة

تنوعت أجناس الأعمال بتنوع واردات الأحوال

الأحوال جمع حال، والحال هو الوضع الذي يمرّ بالإنسان ثم يتجاوزه دون أن يستقرّ لديه.

والأحوال تنقسم إلى قسمين: أحوال نفسية، وأخرى اجتماعية

ونبدأ بالأول منهما:

وإنما نعني بالأحوال النفسية ما اصطلح عليه علماء السلوك أو المهتمون بالتربية القلبية الموصلة إلى الله.. وهي عبارة عن مشاعر داخلية تمرّ ولا تستقر، تأتي نتيجة وقوف وتأمل، عند بعض صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى، إذ تتأثر النفس بتلك الصفات، مما يدفع صاحبها إلى الأعمال التي تتناسب وذلك التأثير الذي هيمن على نفسه. كما تأتي نتيجة وضع مرّ به الإنسان شرد فيه عن أوامر الله وانغمس في بعض المحرمات، ثم انجاب عنه ذلك الوضع فأورثه مزيداً من الخوف من عقاب الله، وألماً من تذكر ماضيه في جنب الله عز وجل.

ففي الصالحين مثلاً من يغلب عليهم الوقوف عند صفات الرحمة والتكرم والإحسان والمغفرة وسعة العفو، وكلها صفات منبثقة من بعض أسماء الله الحسنى، فيتصرف تصرفات دينية ذات طابع جمالي قائمة على أساس راسخ من حسن الظن بالله، وإذا ذكّر الناس بالله لم يذكّرهم إلا بالكثير من فضله وعطائه وآلائه ومغفرته وعفوه، وإذا اتجه إلى الطاعات والعبادات فبدافع من هذا الشعور يتجه، ويغلب على صاحب هذه الحال أن يكون اجتماعي النزعة وأن ينعكس إليه طيف من هذه الصفات نفسها، فتكون أعماله منبثقة عنها.

وفي الصالحين من يغلب عليهم الوقوف عند صفات القهر والعقاب والسلطة الإلهية الواسعة النافذة، والعقاب الذي توعد به المسرفين والظالمين، فيتصرف تصرفات دينية ذات طابع جلالي قائمة على أساس من تغلب الخوف، والشعور بالتقصير وسوء الحال، لا سيما إن كان ممن له ماض يتصف بالشرود والابتعاد عن أوامر الله والانغماس في الآثام والموبقات.

فهذه الأوضاع النفسية تسمى أحوالا، إذ هي تعرض لصاحبها فتتلبث لديه ثم تمر وتمضي، ثم قد تعاوده مرة أخرى، على أنه لا يوجد ميقات محدد لبقائها، فقد يطول أمد بقائها وقد يقصر.

تنوعت أجناس الأعمال بتنوع واردات الأحوال ـ نماذج لأصحاب حالات نفسية متنوعة استلزمت تنوع الأعمال الصالحة على حسبها كان في الصالحين مثلا من تمر به الليالي الكثيرة دون أن تغمض له عين لرقاد كداود الطائي الذي كان يقول: «إلهي، همك عطل علي الهموم الدنيوية وحال بيني وبين الرقاد».

وفيهم مثل فضيل بن عياض الذي وقف في عرفة مع الحجيج، دون أن يدعو كما كانوا يدعون، أو أن يردد الأذكار والأوراد المأثورة في ذلك الموقف، إذ كانت قد انتابته حالة من تذكره لماضيه يوم كان مسرفا على نفسه، جعلته نهبا لمشاعر من الخجل من الله عز وجل، حجبته عن الانشغال بالدعاء والأوراد والأذكار، روى إسحاق بن إبراهيم الطبري أنه وقف مع الفضيل بن عياض بعرفات، فلم يسمع منه دعاء، إلا أنه وضع يده اليمنى على خده، وطأطأ رأسه يبكي خفيا، فلم يزل كذلك حتى أفاض الإمام، فرفع رأسه إلى السماء يقول: واسوأتاه والله منك، وإن غفرت لي، قالها ثلاثا.

وفيهم من حملته هذه الحال، على الاستغفار مما عد في الظاهر عبادة

وطاعة. مثل سريّ السقطي الذي كان يقول: منذ ثلاثين سنة، وأنا أستغفر الله من قولي مرة، الحمد لله!.. قيل له: كيف ذلك؟ قال: وقع ببغداد حريق، فاستقبلني رجل، فقال لي: لقد فجا حانوتك، فقلت: الحمد لله، فأنا إلى الآن نادم على ما قلت، إذ أردت لنفسي خيرا مما حصل للمسلمين.

وفيهم من حملته حاله التي ذكرت صورا ونماذج منها على أن يفطر وهو صائم، مثل معروف الكرخي الذي مرّ بسقّاء وهو صائم، فسمعه يقول: رحم الله من يشرب مني، فتقدم إليه وشرب من بدده، فقيل له: ألم تكن صائما؟ قال: بلى، ولكني رجوت دعاءه.

فهذه التصرفات وأمثالها، قد تكون محل نقد، ممن ينظر إلى ظاهر الطاعات والعبادات مفصولة عن الأحوال الداخلية لأصحابها، فيرى ظواهر الطاعات طاعات في كل الأحوال والظروف وبالنسبة لسائر الناس، ويرى ظواهر الأعمال والأمور المخالفة انحرافا عن الشرع وجادة الدينية في كل الظروف والأحوال، ولكن هذه النظرة السطحية نظرة حائلة، بل خطيرة، يجب التنبه إليها والحذر منها، وهذا ما يبينه ابن عطاء الله في هذه الحكمة، إذ يقول: «تنوعت أجناس الأعمال بقدر تنوع واردات الأحوال».

إذن فليس عنوان العمل في ظاهره الاسمي، هو مناط المثوبة والقبول من الله عز وجل، ولكن مناط ذلك ما تفرزه الحالة التي يمرّ بها المسلم المتجه بكليته إلى الله.

ولقد كان نوع العمل الذي أفرزته حال فضيل بن عياض إذ كان يقف في عرفة مع جموع الحجيج، هو ذلك الاستغراق في مشاعر الخجل والحياء من الله، إذ كان يذكر ماضي سلوكه في شروده عن الله!.. فما من ريب أن ثواب ذلك

الاستغراق بالنسبة حاله هو ثواب الذاكرين والداعين والمرددين للأوراد المأثورة في ذلك المقام.

وكان نوع العمل الذي أفرزته حال السري السقطي المتمثلة في ندمه وحيائه من الله إذ جعل حمده له ترجمة لسروره بما امتاز به عن إخوته الآخرين في السوق، إذ احترقت حوانيتهم، وبقي حانوته سالما لم يمسه سوء، الاستغفار من ذلك الحمد الذي رأى أنه ليس أكثر من غلاف لما رضيه من حال الآخرين ما دام هو سالما !..

وكان نوع العمل الذي أفرزته حال داود الطائي من الهم المتواصل الذي منعه من الرقاد ليالي متوالية، هو ذلك الهم ذاته!..

ولاحظ كيف أن ذلك الهم الذي انتابه لم يترك له خيارا في أن يرقد وينام، أي فلا يجوز أن يقال في حقه: إنه خالف هدي رسول الله القائل: "أما أنا فأصوم وأفطر وأنام الليل وأتزوج النساء"، إذ هو لم يختر لنفسه عملا يخالف هدي رسول الله هذا. ولكن حاله التي انتابته اضطرته إلى وضعه الذي وصفه عن ذاته.

كذلك كان نوع العمل الذي أفرزته حال معروف الكرخي عندما سمع السقاء يقول: يرحم الله من يشرب مني، إذ أيقن بصلاح السقاء، وهزه الشوق إلى أن يكون واحدا ممن يرحمه الله بدعائه، هو هذا الذي أقدم عليه من قطع صومه والشرب من يد السقاء. لا يقال: ولكن في الفقهاء من قالوا إن البدء بالعبادات النافلة يستوجب المضي فيها، لأن أولئك الفقهاء كما اجتهدوا فرأوا ذلك، كذلك معروف الكرخي دلّه حاله التي هيمنت عليه على اجتهاده الذي مال إليه.

وإذا أدركت هذه الحقيقة التي ينبه إليها ابن عطاء الله، والتي شرحتها وأوضحتها لك بهذه الأمثلة من أحوال الصالحين، لن تجد تساؤلك بنقد أو بقالة

سوء في حق كثير من الصالحين الربانيين الذين ساقتهم أحوالهم مع الله إلى أعمال وتصرفات، قد نراها - في الظاهر - غير منضبطة أو غير موافقة لظواهر الأحكام.

ولتعلم أنه يدخل في تنوع أجناس الأعمال بسبب الأحوال النفسية، تفاوت الناس في مدى قربهم إلى الله ومدى شهودهم لصفات الله تعالى واستغراقهم في مشاعر عظمته وجلاله.. قد نرى فيهم من يبتعد عن تناول الطيبات من الطعام ويعرض عن تتبع ما لذ من الشراب، وقد نرى فيهم من إذا ساق الله إليه دون تكلف منه شيءا من تلك الطيبات، أقبل إليها وتمتع بها وتضلّع منها.

إن الصنف الأول ليس له خيار فيما فعل، إذ إن حاله التي تهيمن عليه تجعله يغص باللذيذ من الطعام والشراب، كالخائف الذي سيق إلى ساحة الإعدام ليفذ فيه حكمه، أفيطيب له أم أيهنأ بتناول الطعام اللذيذ إذ يوضع بين يديه؟! .. إن في الربانيين الذين هيمنت عليهم هذه الحال التي وصفت، من يكونون من الأطعمة والمشتهيات اللذيذة في مثل شعور هذا الذي سيق إلى الإعدام.

أما الصنف الثاني، فيملك خياره وإرادته، إذ إن الحال التي هو فيها، هي حال سرور بشهود صفات اللطف والرحمة والعفو والإكرام من الله تعالى.. ومن ثم فليس في مشاعره الداخلية ما يصده عن التعامل والتفاعل مع قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وهذا يعني أن من الخطأ أن يقول أحدنا: أفكان رسول الله يحرّم على نفسه الملاذ؟ أو أن يقول: أفكان في أصحاب رسول الله والتابعين، من يفرض على نفسه الحرمان من الملاذ المباحة الموجودة؟ .. لأن حال الصنف الأول ليس حال أناس اختاروا أن يخالفوا هدي رسول الله، أو سيرة أصحابه من بعده، إذن لاعترضنا عليهم واتهمناهم بالابتداع، ولكنها حال من غُلب عليهم، فقعدوا

اختيارهم من جراء المشاعر التي انتابتهم ... والمشاعر الفعالات قسرية لا توصف بالحرام والحلال ..

على أن في أصحاب رسول الله من انتابتهم هذه الأحوال القسرية، حتى حيل بينهم وبين التنعم بالطيبات، منهم سيدنا أبو الدرداء وسيدنا أبو ذر وكثيرون.

أما الأحوال الاجتماعية، فنراد بها ما يتعرض له الإنسان من الانتقال من حال العزوبة إلى الزواج، ومن حال الفراغ إلى التقيد بالوظائف والأعمال، كما يراد بها تنوع المعارف والاختصاصات العلمية والعملية والمهنية، وتفاوت الوظائف الإدارية والسياسية .. فهذه كلها أحوال اجتماعية يتعرض كل منا لتقلبات كثيرة فيها.

إذا تبين هذا، فاعلم أن الفرائض التي أمر الله بها تشكل الجامع المشترك بين أصحاب هذه الأحوال كلها، ذلك لأنهم جميعا مكلفون بتلك الأساسيات التي فرضها الله عز وجل على عباده جميعاً، كأركان الإسلام الخمسة من صلاة وصيام وحج وزكاة وشهادتي توحيد الله ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

ولكن ما وراء ذلك من القربات والعبادات تتنوع حسب تنوع الأحوال الاجتماعية التي يتقلب المسلم في غمارها، والسر في هذا الربط بين أنواع القربات وأنواع الوظائف والمسؤوليات الاجتماعية، أن الخدمات الاجتماعية بحد ذاتها تعد من أهم الأعمال التي يتقرب بها إلى الله، إن صفت النية وأريد بها الحصول على مرضاة الله.

وها أنا أبرز لك هذه الحقيقة من خلال النماذج والأمثلة التالية:

شاب لم يتزوج بعد، فهو لا يحمل إلا مسؤولية نفسه، الأعمال المقربة إلى الله بالنسبة له، بعد الجامع المشترك المتمثل في الفرائض العامة، هو التفرغ لمزيد من

العبادات والإقبال على القرآن تلقيا ثم إكثارا من تلاوته، وتتبع مجالس العلم والذكر، هذا بقطع النظر عن شؤونه الدنيوية التي هو بصدد تكوينه لذاته عن طريقها، كالتوجه إلى الدراسات وإلى المهارات التي ينبغي أن يأخذ نفسه بها.

فإذا تزوج، فقد أصبح ذا مسؤولية مزدوجة، إذ غدا مسؤولا عن نفسه وعن أهله الذين هم زوجه وأولاده، ومن شأن ذلك أن يدخل تعديلا كبيرا على الأعمال والطاعات التي كان يتقرب بها من قبل إلى الله، إن عليه أن يعلم أن السعي على أهله تيسيرهم ويكفيهم عن المسألة جزء لا يتجزأ من أهم القربات، والجلوس معهم عندما يعود من وظيفته أو شؤونه للتحبب والإيناس جزء لا يتجزأ من هذه القربات، والعمل في السوق للكدح الدنيوي يغدو بالنسبة لحالته جزءا لا يتجزأ من العبادات والطاعات، والحكوف على تربية الأولاد وتسليكهم في طرق الهداية والخير الأخروي والدنيوي جزء أساسي من هذه الطاعات، ولا شك أن هذه الأنواع الجديدة التي طرأت على حياة هذا الشاب من الأعمال الصالحة، لا بد أن تأخذ من حظ العبادات والقربات الأخرى التي كان يشغل نفسه بها قبل الدخول في حالته الجديدة هذه.

والعامل الذي يشتغل في معمل خساب صاحبه، ينبغي أن يعلم أن الأعمال التي تقربه إلى الله تعالى، بعد الجامع المشترك من الفرائض والعبادات الأساسية، تتمثل في إتقان العمل الذي تعهد به والذي اتتمنه عليه صاحب المعمل.

ومعنى هذا أن ساعات العمل التي تعاقد عليها العامل مع صاحب المعمل، يجب أن يتصرف كلها إلى العمل الذي تم التعاقد عليه فيها، على أن نطرح من ذلك الدقائق التي لا بد منها لأداء الصلاة المكتوبة ومقدماتها من طهارة ووضوء.. أي فلا يجوز له أن يصرف، من وراء ذلك، شيئا من ساعات العمل إلى أداء نوافل

أو قراءة قرآن أو دراسة علم ولو شرعي. ذلك لأن الحال الاجتماعية التي يمرّ بها هذا الإنسان تضعه أمام نوع آخر من الأعمال المقربة إلى الله، ألا وهو العكوف على أداء ما التزم به على خير وجه. ولا يمنعه من اكتساب الأجر الوفير على ذلك من الله عز وجل، إلا أن تكون نيته غير خالصة لوجه الله عز وجل.

كثيرون هم العمال الذين إذا حان وقت الصلاة اتخذوا من انصرافهم إلى الصلاة ذريعة لتشاغل وتكاسل عن العمل الذي تحملوا مسؤوليته تجاه رب العمل، إذ يطيلون من وقت الصلاة ومقدماتها بدون موجب. وربما اجتمع المصلون من العمال يتجاذبون أطراف الأحاديث المسلية فيما بينهم، أو ربما رأيت البعض منهم يطيب له أن يواصل جلوسه في مصلاه بعد الصلاة لقراءة قرآن أو دراسة كتاب، موهما نفسه أنه يتقرب بذلك إلى الله، مع أن انشغاله بذلك إنما هو في حقه معصية تستوجب الوزر، ذلك لأن هذه الدقائق التي صرفها إلى هذه النوافل الدينية، ليست ملكا له، وإنما هي ملك لرب العمل، فهو بما أقدم عليه إنما مارس عدوانا على حق الغير. وهذا الحكم الشرعي مثبت في باب الإجارة من مصادر التشريعة الإسلامية.

كذلك كثيرون هم الذين يؤدون العمل الذي طلب منهم بشكل سطحي غير متقن، إما تهاونا منهم وضجرا من التصبر على بذل كل ما في الوسع لأداء العمل على وجهه السليم، وإما لحقد أو لحسد يهيمن على نفوسهم تجاه صاحب المصنع أو المعمل، وأكثرهم لا يعلمون أن تهاونهم هذا لا يقل في ميزان الشرع عن حال من يتهاون في صلاته فينقص بعضا من أركانها أو واجباتها أو يعجل بها للتخلص منها، إن نوع الطاعة، بل العبادة، التي يتقرب الله بها هذا العامل ليس أكثر من العمل الذي كلف به (بعد أداء الجوامع المشترك من الفرائض الأساسية) لذا فإن أي خيانة

تبدر منه في العمل تجاه رب العمل إنما هي خيانة تجاه الله عز وجل.

والموظف الذي أقيم وراء مكتبه لأداء الأعمال الإدارية التي كلف بها، يجب أن يعلم أن عبادته التي تقربه إلى الله تعالى تتمثل (بعد أداء العبادات الأساسية) في إتقان الوظيفة التي عهد بها إليه، ويجب أن يعلم أن الأجر الذي يدخره الله له عليه، لا يقل عن أجر العبادات والقربات التي يتقرب بها العباد المتفرغون للنوافل والأذكار وتلاوة القرآن ونحوها، بشرط أن يقصد بذلك وجه الله عز وجل، وأن يكون العمل الذي عهد به إليه مشروعا ومفيدا للأمة في أصله.

وصاحب المسؤوليات السياسية على اختلاف درجاتها ورتبها، ينبغي أن يعلم أنه بعد أن ينجز الجامع المشترك الذي كلف الله به سائر عباده والمتمثل في الفروض والعبادات الأساسية، فإن القربات التي تستنزل مرضاة الله، بالنسبة إليه، إنما تتمثل في خدمة الأمة وحماية حقوقها ورعاية قيمها، وملء روابط الأمن والطمأنينة والرخاء فيما بينها. إن سهر ولي أمر المسلمين، أو أي من حاشيته وأعوانه، للنظر في رعاية أي من هذه الواجبات، ليس أقل أهمية، في ميزان الطاعات المقربة إلى الله، من سهر المتعبدين والمتبتلين بنوافل الصلاة من تهجد وقيام وذكر واستغفار.. على أن يتوخى أصحاب هذه المسؤوليات في جهودهم وأعمالهم بلوغ مرضاة الله، وعلى أن لا تعوقهم جهودهم تلك عن النهوض بالجامع المشترك المتمثل في الفروض الأساسية المتمثلة في أركان الإسلام.

ولقد نوّع الله قدرات عباده بما يهيئها للنهوض بأنواع الطاعات والقربات كلها، فكان من مقتضى ذلك أن ينهض صاحب كل قدرة متميزة بالأعمال المنسجمة مع قدرته.

فمن مظاهر هذا التنوع ما قد نراه من حال إنسان أقدره الله على استيعاب

المعارف والعلوم الإسلامية، فهو عاكف على دراستها ثم تدريسها ونشرها بالوسائل الممكنة. تلك هي القدرة التي منحه الله إياها. إذن فذلك هو العمل النوعي المنوط به، من قبل الله عز وجل. وما قد نراه من حال إنسان آخر أقدره الله على الصبر بين المتخاصمين من الناس بإصلاح ما بينهم، ووسع صدره للصبر على ذلك، دون أن تكون له باع عريضة في العلم ومسائله. إذن تلك هي القدرة التي منحه الله إياها. وإذن فذلك هو العمل النوعي المنوط به والذي يقربه إلى الله عز وجل.. وما قد نراه من حال إنسان ثالث لا بد له بهذا ولا بذاك، ولكنه ينشط بالسعي في خدمة الناس، وقضاء حوائجهم ورد الأذى عنهم. إذن فذلك هو العمل النوعي المنوط به من قبل الله عز وجل.

وهكذا فقد وضح المعنى المراد بقول ابن عطاء الله «النوعت أجناس الأعمال بقدر تنوع واردات الأحوال».

أما الأثر التربوي الذي تحدثه معرفة هذه الحكمة بأبعادها التي فصلت القول فيها، فهو الالتزام بضوابط الأدب مع عباد الله جميعا ما داموا مسلمين.. إنك بعد أن عرفت هنا الذي ذكرته لك من تنوع الأعمال المقربة إلى الله، وعدم انحصارها في المظاهر التعبدية المعروفة والمألوفة، لن تتمكن من إساءة الظن في حق من قد تراهم مقصرين في أداء الصلوات أو غيرها من الأذكار والقراءات. كما أنك لن تسيء الظن في أي من المبتدئين والمتعبدين الذين وردت في ترجماتهم تصرفات ومواقف، قد تراها في بادئ الأمر مخالفة للشرع، أو ترى فيها مبالغة لا وجه لها في باب التورع وحدوده، وقد عرضت لك نماذج وأمثلة منها.. ذلك لأنها نتائج لأحوال نفسية كانت تهيمن عليهم فلا تدع لهم خيارا فيما كانوا يفعلون.

وكم رأينا، ونرى، الناسا يطيلون ألسنتهم بمقالة السوء، في حق هؤلاء

الصالحين دون رؤية أو إدراك لهذا الذي يقوله ابن عطاء الله.

وكم رأينا ونرى أناساً ينتشون ويطربون بمقالة السوء في حق أناس أقامتهم ظروفهم في أجواء بعيدة عن التنسك والانضباط بآداب الكمالات الدينية المعروفة، دون أن يدركوا أن القربات التي ترضي الله ليست محصورة في هذه الظواهر المحدودة، ودون أن يعلموا أن الوظائف التي أقامهم الله عليها هي أجل من تلك الظواهر أثراً وفائدة لهم عند الله إن أخلصوا له في القيام بها على الوجه السليم، بل حتى الذين قد نراهم مقصرين في الفرائض الأساسية التي عبرنا عنها بـ "الجامع المشترك" يجب أن نذكرهم بها وندعوهم إليها، ولكنا لا يجوز أن نسيء الظن بهم، إذ إن انصرافهم إلى وظائفهم الأخرى التي أناطها الله بهم، ستكون على الأغلب جاذباً لهم إلى تدارك ذلك التقصير، كما رأينا من حال الكثيرين من أمثال هؤلاء.

واعلم أن ثمة فرقاً كبيراً بين واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخطورة سوء الظن، إن الأول لا يستلزم الثاني بحال من الأحوال، أي فواجبنا أن نذكر المقصرين بالفرائض والأركان، وأن نجنح إلى حسن الظن بهم في الوقت ذاته، أي أن نرجح في باب التصورات والافتراضات المستقبلية أن الله سيلهمهم تدارك هذا التقصير، وأنهم سيؤوبون إلى الله عما قريب، بفضل وظائفهم الأخرى التي يؤدونها على النهج السليم الذي يرضي الله عز وجل.

الحكمة الثالثة عشرة

كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته!
أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته!
أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته!
أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته!

الشطر الأول من هذه الحكمة الجديدة: **«كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته»**.

إن من المعلوم أن الإنسان ثنائي التركيب، إذا طرحنا منه قفصه الجسدي الذي لا شأن ولا قيمة له، فهو مركب من ركنين أساسيين بهما تتكامل إنسانية الإنسان: العقل والقلب.

أما هذا القفص الجسدي فالإنسان شريك فيه مع سائر الحيوانات الأخرى لا قيمة للشكل أو المظهر الذي يبدو أنه يفرق بينهما، وإنما تعود الآثار التي يخلقها الإنسان في المجتمعات، من حضارة وعمران وثقافة وعلوم، إلى العقل الذي من شأنه أن يعي ويدرك، وإلى القلب الذي هو مجمع العواطف والوجدان.. إن الإنسان بهاتين الحقيقتين أنشأ ما أنشأ من حضارات، ووصل إلى ما وصل إليه من علوم واكتشافات، بل إنه بهاتين الحقيقتين أصلح ما أصلح وأفسد ما أفسد فوق هذه الأرض.

إذن فالعقل مهمته في حياة الإنسان الإدراك والوعي، ولسنا هنا بصدد البحث عن مركز العقل أهو في الدماغ أم في أي مكان آخر من جسم الإنسان، فلهذا التحقيق مناسبة أخرى.

وأما القلب (ولا نعني به هذا الذي يصطلح عليه الأطباء وعلماء التشريح

من العضلة المادية الجاثمة وراء الرئة اليسرى) فهو ملتقى العواطف الدافعة والرادعة والممجدة: العواطف الدافعة هي التي تتمثل في الحب والتعظيم، والرادعة هي التي تتمثل في الخوف والكراهية، والممجدة هي التي تتمثل في الانبهار والإعجاب والإجلال.

هذا المكان الخفي الذي تلتقي فيه هذه العواطف المتنوعة يسمى القلب.

إذن فأنت يا ابن آدم إنما تحققت إنسانيتك بسرين اثنين:

أولهما هذا العقل المدرك الذي يعي الأشياء ويحاول أن يبلغ أسرارها.

ثانيهما ذلك الوعاء الذي هو مجمع العواطف في حياتك به تتحقق الكراهية والحب وبه تستشعر الخوف والتعظيم.

ولا شأن لنا الآن بالعقل والحديث عنه، إنما الحديث هنا عن القلب.

بوسعنا أن نتصور الآن أن القلب عبارة عن لوحة تتمتع بحساسية مرهفة إن وقع بصرك من الدنيا على شيء ينسجم مع رغائبك ومع ما وجه الله آمالك وأحلامك إليه، انعكس من ذلك شعور على لوحة القلب، أورثك ما نسميه الحب ..

وإن وقع بصرك على ما لا يتفق مع مزاجك وأهوائك، انعكس من ذلك شعور آخر على لوحة القلبأورثك ما نسميه الكراهية ..

وإن رأيت في المجتمع أناسا قد سابقوك فسبقوك إلى مجد تبتغيه أو إلى مال تكدّ في سبيله، سرعان ما ينعكس من ذلك شعور ثالث على لوحة قلبك، هو ما نسميه الحسد أو الحقد أو الضغينة.

وإن رأيت من حولك أناسا لم يقيموا لك الوزن الذي تريد ولم يأبهوا بك في مجلس من المجالس، أو مجتمع من المجتمعات، تجلّى على هذه اللوحة من ذلك

شعور آخر، هو ما نسميه الغضب وثورة الأعصاب.

لذلك هي إذن مهمة القلب، إنه عبارة عما يشبه لوحة ذات حساسية دقيقة، تسجل وتتجلى عليها المشاعر المختلفة التي تطلق عليها العواطف الدافقة أو الرادعة أو الممجدة.

إذن فلنطرح السؤال التالي: عندما يمارس أحدنا أعماله ونشاطاته المتنوعة، أفيستجيب في ذلك لدوافع عقله الذي به يدرك ويعلم، أم لدوافعه القلبية التي بها يحب ويكره ويعظم ويثور ويغضب؟!..

يقول علماء النفس: إن الدوافع القلبية هذه إلى الأعمال والأنشطة السلوكية في حياة أكثر الناس، تساوي ٧٠٪ من مجموع دوافعهم إلى السلوك، أما الدافع الفكري فيساوي ٣٠٪ منها.

ولو أن الناس كلهم كانوا يستجيبون في أعمالهم وأنشطتهم الاجتماعية لقرارات عقولهم وأحكامها، لرأيت الوفاق هو الغالب على حياتهم ولرأيت ثمار التعاون الدائم بينهم قد عمت فوقهم بروق السعادة والأمن والأمان، بل لرأيتهم جميعا يدينون بالولاء التام لمولاهم الأوحد، وهو الله عز وجل .. ولكن الناس كانوا ولا يزالون منذ أقدم العصور يستجيبون لنوازعهم العاطفية أكثر مما يستجيبون لقناعاتهم العقلية، وإنما يستخدم العقل أداة بيد مشاعر الحب والتغضب والحسد والكراهية والحقد، فهو يتحرك ويعمل، ولكن كما يحكم سلطان هذه المشاعر.

وقد علم الناس قديما خطأ، بل خطر، تحكم العواطف بالعقل، فعالجوا ذلك بما يسمونه التربية، ولعلك تعلم أن التربية تعني اعتماد الوسائل التي تخضع العاطفة للعقل، بدلا مما هو الواقع الغالب من خضوع العقل للعاطفة، قد تتطور أساليب التربية وقد يتفنن المربون في وسائلها، ولكن تلك هي الغاية دائما وعلى

كل حال، ولقد كان الناس ولا يزالون يقولون: فلان يتمتع بتربية عالية، أي إنه يخضع عواطفه لقرارات العقل وأحكامه.

إذا عرفنا هذا فلنعلم إذن أن القلب هو القائد دائماً لأنه المرجل الذي تغلي فيه العواطف، والمرجل هو الذي يحرك ويقود.. أما العقل فإنما هو مجرد مصباح يضيء، ومن ثم فهو ملكة كاشفة، كما قالوا، وليس طاقة مؤثرة.

وهنا يأتي دور كلام ابن عطاء الله الذي يشبه القلب بالمرآة، إذ تنعكس عليها مشاعر الإنسان وأحاسيسه..

أرأيت إلى المرآة إذ توجهها إلى بئر مظلمة كيف يغدو سطحها أسود مظلماً، وإذ توجهها إلى الشمس الساطعة، كيف تتلألأ بمثل ضياء الشمس، وإذ توجهها إلى حديقة تمازجت فيها الخضرة مع أفانين الأزهار والورود، كيف تتحول إلى لوحة تحمل الصورة ذاتها.. فكذلك القلب، إن هو إلا مرآة تنعكس عليه صور من أحوال صاحبه.

فإذا كان الإنسان متجهاً دائماً برغباته إلى الدنيا التي تتمثل في الدرهم والدينار والدور والأثاث والمتع والزوجة والأولاد والمجد والشهرة والزعامة ونحو ذلك بحيث يصبح ويمسي وتلك هي آماله وأحلامه، فلا بدّ أن ينطبع ذلك كله على مرآة قلبه، ولا بدّ أن تتحول عواطفه كلها إلى جنود مجندة في خدمته. فأنى لوجود الله وسلطانه أن يجد متسعاً على صفحة هذا القلب؟ وعاء امتلأ وفاض بالآمال الدنيوية المتنوعة وبالرغائب النفسية والغريزية، ثم تكاثر فوقه الكثير من مشاعر الحقد على المنافسين، ومشاعر الحسد والبغضاء للسابقين والمتميزين، كيف يمكن أن يبقى فيه متسع للشعور بمحبة الله أو للشعور بتعظيمه والمخافة منه؟ هما ظلام وضياء إن احتل أحدهما القلب غاب عنه الآخر، إذ هما نقيضان لا يجتمعان.

وإذا غشي القلب ظلام هذه الأهواء وما تجره من آثام، تزايدت من ذلك النكت السوداء عليه، كما قال رسول الله، إلى أن يعم نسيج هذا السواد القلب كله، وهو الران الذي قال عنه الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

عندئذ يعاني هذا الإنسان ما يسمى بانفصام الشخصية، إنه مؤمن بعقله، لأن العقل يدرك الحقائق بطريقة آلية، كما يدرك أن ١+١= ٢. فهو عندما يسمع مثل هذا الكلام، أو يحضر مجلس تذكرة ونصح، يذعن للحق ويعترف به، ويستجمع على ذلك مزيدا من الأدلة والبراهين، ولكنه ما يكاد يخرج من المجلس حتى يعود إلى شأنه خاضعا لأهوائه ورغباته!..

ذلك لأن القيادة بيد العواطف وليست بيد العقل، وإنكم تشاهدون هذه الحقيقة التي أقولها في واقع الناس اليوم، إن أكثرهم يعرفون الحق ويميزونه عن الباطل، ولكن تأمل: كم منهم يخضعون سلوكهم للحق الذي عرفوه؟ إنهم لا يبلغون الربع!.. لأن الذي يقودهم ليست العواطف والأهواء، لا ضياء العقل وأحكامه.

وإذا سأل صاحب هذه الشخصية المزدوجة: ها أنا موقن بالحق الذي أسمعه من كتاب الله عز وجل، فما الذي يحول بيني وبين الاستجابة لأمره؟ يأتيه الجواب من ابن عطاء الله: «كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته» فقلبك مظلم بالران الذي تكاثف فوقه، فأنت محكوم لسلطان هذا الران، لم يبق في قلبك متسع لحب يحدو بك إلى الاستجابة لأمر الله، ولا لخوف يحجزك عن معاصي الله، ولا لتعظيم يقف بك عند حدود الله!.. والحب، والخوف، والتعظيم، كل ذلك مكانه القلب لا العقل.

والقلب مليء بظلال سوداء، من التعلق بالدنيا .. بالشهوات .. بمنافسة الآخرين، بمشاعر الحسد والأحقاد عليهم .. منصرف إلى التقلب في أحلام المتع التي اقتحمت غمارها واستقرت في نفسك أصداؤها.

وإذا أقبل العقل يستأذن قلبك ليغرس فيه شتلا أو نواة لمحبة الله عز وجل، يبحث .. ثم يبحث .. فلا يجد فراغا فيه لهذا الغرس ! ..

يتجه العقل إلى القلب، ليبلغ صاحبه رسالة الله التي يقول له فيها: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦] ولكن القلب لا يجد مجالا لأي استجابة أو خشوع، لأن صور الأكوان قد استعمرته وهيمنت عليه.

ورسالة العقل التي هي العلم، من الأهمية بمكان، ولكن الحقائق العلمية لا بدّ لها من مغرس تنمو وتزدهر فيه، ومغرسها في حياة الإنسان القلب، فإذا سدت منافذ القلب وأظلم أرجاؤه للسبب الذي يذكره ابن عطاء الله، فإن مصير رسائل العقل كلها الذبول والتضييع. وكم يتجلى هذا الذي أقوله في العبرة التي ساقها لنا كتاب الله عز وجل، إذ يحدثنا عن ذلك الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، وأصح ما قيل في اسمه - على ما ذكره ابن كثير في تفسيره - أنه بلعام بن باعوراء، أحد علماء بني إسرائيل، لقد آتاه الله آياته علماً، كما قال عز وجل، ومستودع العلم هو العقل، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، وسبيل ذلك إنما هو القلب، تعلّق قلبه بالدنيا التي كنى الله عنها بكلمة (الأرض)، فقاده قلبه بدلا من عقله واتبع هواه، فكانت سيرته كسيرة الكلب، يلهث وراء الدنيا دون أن يشبع منها، كالكلب الذي يلهث بلسانه في كل الظروف والأحوال، واسمع في هذا كلام الله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ

مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ، وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ – ١٧٦].

إذن لن يشرق قلب انطبعت فيه صور الأكوان، فحجبت صاحبه بذلك عن المكوِّن جلَّ جلاله. ولعلَّ فينا من يسأل: ففيم كان ذلك؟ وعلامَ استقرت في القلب بدلا عن ذلك صفات المكوِّن، لاسيما وأن العقل موقن بالله وبوحدانيته وصفاته؟

يأتي الجواب عن هذا التساؤل من خلال الفقرة الثانية من هذه الحكمة، وهي قوله: «**أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبّل بشهواته؟**» أي لو لم يكن القلب مكبلا بشهواته، لاتجه إلى الله عز وجل وابتغى من الدنيا كلها رضاه، ولو تمَّ له ذلك لأعرض عن الأكوان واتجه إلى المكوِّن، ولما انطبعت صور الأكوان في مرآته.

إذن فهذه الفقرة الثانية من هذه الحكمة، تتضمن بيانا لعلاج المشكلة التي تضمنتها الفقرة الأولى، وهي انطباع صور الأكوان على القلب مما جعله في شغل شاغل عن المكوِّن.

ولعلك تتبين الآن العلاج الذي ترسمه الفقرة الثانية، عن حيث تعبّر في الوقت ذاته عن مشكلة ثانية، سيحيل ابن عطاء الله حلها إلى الفقرة الثالثة: لو كانت الصور التي تستقر على القلوب كالصور والنقوش التي ترسم على الورق أو الجدران، لكان السبيل إلى محوها أمرا يسيرا، تعمد إلى الممحاة فتمحو بها ما أثبته على الألواح أو الجدران، ولكن الصور التي ترسم على القلوب لا يمكن أن تمحى بالوسائل المادية والتقليدية المعروفة.

إن سبيل ذلك محصور في هذه الفقرة الثانية «**أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبّل بشهواته؟**».

أي إن صور الأكوان لم تنطبع على فؤادك إلا بسبب الشهوات التي استعبدتك وكبّلتك، فجعلتك تثاقل إلى الأرض، فهي التي ألقت من ذلك ظلالاً من السواد على قلبك، وأنستك المكوِّن وسلطانه، لتشغلك بمخلوقاته ومكوَّناته.

إذن فالعلاج الذي يمحو صور الأكوان من فؤادك، ليتهيأ لاستقبال صفات المكوِّن وآلائه، إنما هو تحررك من أسر الشهوات التي كبّلتك، وإنما يكون ذلك بأن توجه حبك إلى من بيده إسعادك أو إشقاؤك بهذه الشهوات.

ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

كيف السبيل إلى أن يحرر أحدنا نفسه من أسر الشهوات التي تكبلنا فعلاً ببريقها وتأثيرها؟

السبيل إلى ذلك يتبين من المشكلة التي تضمنتها الفقرة الثالثة من هذه الحكمة، وهي قوله: «أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟».

إذن المشكلة هي غفلتك عن الله الذي بيده الخلق والأمر كله، بيده النعم التي تركن إليها، والشهوات التي تحلم دائماً بها، هو الذي يمتعك بلذاتها إن أقبلت إليك، ويبتليك منها بالآلام والمنغصات إن أدبرت عنك.

وإذا كانت المشكلة هي هذه الغفلة، فالعلاج يكمن في أن تسعى سعيك الجاد للتخلص منها.. إذا تخلصت من الغفلة اتجه منك القلب إلى الإله الذي شهواتك بيده، ونعمك من صنعه، وسعادتك من فضله، فتتعلق آمالك به، ويصفو حبك له؛ وعندئذ تتحرر من أسر الشهوات التي كبلتك، ومن ثم تغيب عن مرآة قلبك صور المكونات، لترتسم في مكانها صفات المكوِّن جلَّ جلاله.

ولكن ما العلاج الذي يعينك على التخلص من الغفلة التي هي سبب

وقوعك في أسر الشهوات، ومن ثمّ فهو سبب المشكلة التي قبلها؟

العلاج هو الابتعاد عن الآثام والهفوات، وهو ما تضمنته الفقرة الأخيرة التي يقول فيها: «ثم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟».

إذن فكثرة الهفوات هي السبب في الوقوع في الغفلات.. والاستغراق في الغفلات هو السبب في الاستسلام لأسر الشهوات.. والاستسلام لأسر الشهوات هو السبب في هيمنة صور الأكوان على القلب، وانتشار (الران) عليه.

ومن ثم فإن العلاج يبدأ بضرورة التغلب على المشكلة الأولى، وهي مشكلة الاستسلام للهفوات والآثام.. يجب أن تتغلب على هفواتك أي على معاصيك بالابتعاد عنها والتطهر منها، ولا بدّ أنك ستقول: وهل بوسعي أن أكون معصوما من ارتكاب الأوزار، وقد علمنا أن كل بني آدم خطاء؟.. والجواب: ليس المطلوب هو العصمة، وإنما المطلوب أن تحرص على الابتعاد عن المعاصي جهد استطاعتك، فإذا ابتليت بشيء منها، فطهّر نفسك منها بالتوبة، واعزم بصدق على أن لا تعود، فإن هاجت بك النفس مرة أخرى وعدت إلى المعصية، فعد بعدها سريعا إلى التوبة.. والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وتلك هي عصمة الضعفاء من أمثالنا، وعنهم قال الله عز وجل، مجيبا عن توعد الشيطان بإغوائه عباد الله أجمعين، بدفعهم إلى المعاصي والفواحش: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] أي إن الذين تحققوا بصفة العبودية لي، لن يكون لك سبيل إلى إغوائهم، لأن مشاعر عبوديتهم لله ستدفعهم عند ارتكاب المعصية إلى الحسرة والندامة، وسيحملهم ذلك على التوبة الصادقة، وبذلك يزول وقع المعصية ويمحي وزرها ومهما عاودته نفسه إلى مثلها أعادته مشاعر عبوديته

لله إلى الندم الحقيقي وإلى التوبة الصادقة.

فإذا تخلص الإنسان بهذه الطريقة من آفة الشهوات والمحرمات، وسار ثابتا مستقيما في طريق الطاعات، فإن غاشية الغفلة تزول عنه، وسيصحو شعوره وضميره إلى مراقبة الله عز وجل وذكره، وهكذا فإن انغماس الإنسان في المعاصي يزجه في ظلام الغفلات؛ وتوجُّهه إلى الطاعات وتنفيذ أوامر الله، يوقظه من سكرتها ويرقى به إلى صعيد مراقبة الله والإكثار من ذكره.

فإذا تحرَّر من الغفلة التي كان مكبلا بها، فقد آن له أن يدخل حضرة الله تعالى، على حدّ تعبير ابن عطاء الله، وهذا التعبير عنه بحالة إلى قول رسول الله، وهو يعرِّف الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» أي تجذب بمشاعرك من الدنيا وأحوالها وآثارها، فتغيب عنك غيبة تامة ولا يبقى في إحساسك إلا الشعور بأنك في حضرة الله وبين يديه تناجيه بما تخاطبه به من قرآن أو ذكر أو دعاء كأنك تراه.. ولتعلم أن المسلم بمقدار ما يبتعد عن المعاصي ويتنزه عنها، يقرب من درجة الإحسان هذه، ويدخل حضرة الله تعالى بمشاعره التي تطهرت من جاذبة الغفلات، بعد أن تطهرت من دنس الموبقات.

ونأمل الآن في أثر هذه اليقظة القلبية إلى شهود الله، في كبح جماح الشهوات عن النفس وإبعاد سلطانها عن القلب..

إن شهود العبد لربه لا يعني أكثر من شهود صفاته، وآلائه، ومظاهر فضله ورحمته، فهو لا يستقبل نعمة إلا ويربطها بالمنعم المتفضل وهو الله عز وجل، ولا يتقلب متنقلا من حال إلى حال، إلا ويرى أن الله هو المتصرف به والمسيِّر له، ومن شأن هذا الشعور إذا استمر، أن يصرف القلب من محبة الأغيار إلى محبة الله عز وجل، إذ هو مصدر كل نعمة وعطاء، وأن يغيب عنه تعظيم المخلوقات ليقف

أمام عظمة الخالق عز وجل.

ولا شك أنّ الإنسان في كلّ الأحوال مفطورٌ على حبّ المال ومتعه، وعلى حبّ النعم بأنواعها، ولكنه عندما يعلم أن المتفضل عليه بها هو الله، وأن الذي يبعث الشعور بلذتها ونعيمها هو الله، فلا بدّ أن يتوجه قلبه بالحب إليه، لأنّ القلوب جبلت على حبّ من أحسن إليها، وقد علم صاحب هذا الشهود أن لا مُحسن في الكون كله إلا الله، والوسائط والأسباب التي تراها إن هي إلا جنود وخدم تحت سلطان الله، ومن ذا الذي يتخذ من هؤلاء الخدم أنداداً يحبهم كحب الله ؟! .. فإذا ثبت لصاحب هذا الشهود أن المنعم والمتفضل دائما هو الله، وأن الذي يرجى نفعه ويخشى ضرّه واحد لا ثاني له، وهو الله، فلا شك أن المحبوب الأول والمعظم الأول والمُهاب الأول لديه هو الله تعالى، ثم تأتي محبته للمنعم التي قطر على حبها في الدرجة الثانية بل الثالثة، بل إن في أصحاب الشهود من تغيب عن أفئدتهم محبة ما عدا الله نهائيا، ولكن الله تفضلا منه ورحمة لم يجعل من هذه الحال المقياس أو الميزان الذي لا بدّ منه لكمال الإيمان، بل جعل ميزان ذلك تسامي محبة الله على محبة الأغيار، وانظر هذا اللطف الإلهي كم يتمثل في قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

إذن فقد يجتمع محبة الله مع محبة أنداده في قلب المؤمن، ولكن محبة الله تكون هي الغالبة فيه.

كان صاحب هذا الشهود، من قبل، أي عندما كانت غاشية الغفلة تغطي فؤاده، مكبلا بشهواته، أسيرا لها، متطلعا إليها.

غير أنه اليوم وقد انجابت عنه غاشية الغفلة، وهيمنت عليه لذة شهود الله،

لا بدّ أن يتضاءل سلطان شهواته الدنيوية، وأن يتسامى قلبه فوقها، وليس معنى هذا أن يتحول صاحبها إلى ملك لا يشعر بها، ولا يتعامل معها، وإنما ينفك عن أسرها ويتحرر من سلطانها، إذ إن لهمن لذة شهوده لله، وحبه وتعظيمه لله تعالى، ما يشغله عن التعلق بشهواته النفسية، إن ورد إليه شيء منها بطريقه الشرعي، استقبله بقبول حسن، وإن لاحت له شاردة عن ضوابط الشرع وحكمه أعرض عنها وترفع فوقها.

إن صاحب هذه الشهود (وسلّمه الواصل إلى رتبة الإحسان إن شئت) لا يمرّ على كلام الله كأحدنا مرّ الكرام، غير آبه بمعانيه ولا متأثر بمراميه، بل يتأمل فيه تأمل من يسمعه خطابا مباشرا من الله له .. فكيف تكون حاله، وكيف تكون علاقته بشهوات الدنيا، عندما يسمعه يقول: ﴿إِنَّما هَذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ﴾ [غافر: ٣٩]. أو عندما تسمعه يقول: ﴿لا يغُرَّنَّك تقَلُّبُ الذين كفروا في البلاد، متاعٌ قليلٌ ثمَّ مأواهم جهنم وبِئس المهاد﴾ [عمران: ١٩٦ - ١٩٧] أو عندما يقول: ﴿قُل متاعُ الدُّنيا قليلٌ والآخرة خير لمن اتقى .. ﴾ [النساء: ٧٧].

إن سماعه لهذا الكلام مع الحالة التي هو فيها، مما قد وصفت لك، يهوّن من أمر الشهوات التي تتراقص أمام بصره، فلا تستطيع أن تأسره لتسيره حسابها.

واعلم بأن محبّة الله إذا هيمنت على القلب، بددت ما كان يعشش فيه من قبل من محبة الأغيار، ومنها الشهوات والأهواء.

فإذا وصل السالك إلى الله، في معالجة مشكلاته القلبية هذه إلى هذا الحد، فإن مرآة قلبه تتحول من التوجه إلى الأكوان وما فيها من متع وأهواء ورغائب، لتتجه إلى المكوّن وهو الله عز وجل.

أجل .. ستتلاشى عنه صور الأكوان، لتترسخ عليه صفات المكوّن جلّ

جلاله، ولكن لا تمحاة مادية مما تمحى به النقوش والرسوم على الألواح، وإنما بسلسلة العلاجات التي ذكرها ابن عطاء الله.

لعلك تقول: كيف يتأتى أن ترى العينان صور المكونات، ثم لا تستقر هذه الصورة في الذاكرة ثم على صفحات القلب؟

والجواب أن صور المكونات لا بد أن تنتقل من العينين إلى الذاكرة أو المخيلة كما تقول، فإذا تجاوزتها إلى القلب، وصادفت قلبا نابضا بحب الله وبذكره كما قلت لك قبل قليل، فإن القلب لا يتلقى بدوره هذه الصور، إلا على أنها آيات ناطقة بوجود الله ووحدانيته، يتلقاها سطورا صيغت بأبلغ بيان ينطق بصفات الله وعظيم آلائه، يتلقاها وهو ينشد قائلا:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

صاحب هذا القلب المحب الذاكر، نعم يرى المكونات.. نعم تنعكس صورتها على قلبه، ولكنها لا تنطبع على صفحاته إلا تنقل حديث تسبيحها إليه، فيفقهه ذلك القلب من دون الناس جميعا، وصدق الله القائل: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]

صاحب هذا القلب المحب الذاكر، نعم، يرى زخرف الأرض من خضرة وزهور وورود ورياحين، كما يراها التائهون والغافلون، ولكنه يتلقاها بقلبه ويحيلها إلى شعاع من الشوق إلى جمال الله، والحيرة في عظيم وبديع صنع الله.. وهو يرى في الليل صفحة السماء تتلألأ بنجومها، منورة ببدرها، ولكن قلبه لا يتلقى هذه الصورة إلا رسالة وافدة إليه من عند الله، فهو مهما قلب ناظريه في آفاق السماء، لا يتبين فيها إلا مضمون هذه الرسالة.. وهو يتأمل في السماء التي تمطر وفي الأرض التي تنبت، وفي أنواع الأطعمة والفاكهة المتنوعة في مذاقها وروائحها

وألوانها، ولكن قلبه المحب الذاكر لا يتلقاها إلا نعما وافدة من المولى المتفضل الكريم، ولا تنطبع على مرآته، إلا آية من نور يخاطب الله بها عباده قائلا: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٤].

وذلك هو شأن يقظة القلب بمحبة الله وتعظيمه والخوف منه، مهما انعكست عليه صور الآثار الكونية، فإنه لا يرى فيها إلا المؤثر جلّ جلاله، وتلك هي الحالة التي يسمونها وحدة الشهود، وهي المرتبة العليا التي يجب على كل منا أن يجاهد نفسه في بلوغها، في الاصطباغ الشعوري، بعد اليقين العقلي، بوحدانية الله عز وجل، وهي تختلف عن وحدة الوجود الباطلة اختلافا جذريا.

وإذا لم يبلغ أحدنا هذه الرتبة في الاصطباغ بحقيقة التوحيد، فسوف تصبح صور المكونات التي يتعامل معها، حجابا يشغله عن ذكر الله وعن حقيقة قيوميته الدائمة على هذا الكون، وسوف يتيه بالآثار عن المؤثر، وبالصنعة عن الصانع، ولا بدّ أن يسلمه هذا التيه، من بعد، إلى يمّ من الغفلات، ثم إلى منزلقات من الهفوات والآثام.

إن العبد إذا ازداد تعلقه بعبد مثله أو بفتاة من الناس، يقع في معاملته له أو لها في هذا الذي يسمونه بوحدة الشهود، فإذا وقع بصره على شيء من آثاره أو آثارها، تاه عن ذلك الشيء وزاغت عيناه عن التأمل في حقيقته، وانصرف بخياله إلى صاحبة هذا الشيء، فلم يعد يرى فيه إلا ما يذكره بها، ألم تسمع قول مجنون ليلى وهو يتحدث عن ديار ليلى التي رآها بعد طول غياب:

أمرّ على الديار ديار ليلى أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حبُّ الديار شغفن قلبي ولكن حبُّ من سكن الديارا

وإذا كان هذا شأن العبد مع إنسان مثله، يغيب عن آثاره به، فكيف ينبغي

أن يكون شأن العبد مع ربه الذي هو وحده ربّ هذا الكون كله؟ ينبغي أن يكون أكثر حبا له من سائر الأنداد، كما قال الله عز وجل. وإذا أصبح كذلك، إذن ينبغي إذا رأى عظيم صنع الله، وجميل إبداعه، ووافر نعمه وآلائه في المكونات، أن يتيه عنها، بما يراه فيها من عظيم صفاته، وباهر حكمته وإحسانه.

وانظر إلى الآيات التي يأمر الله فيها عباده أن يتخذوا من مظهر المكونات كلها جسرا يوصلهم إلى ذكر الله، ويحتقهم من رقدة الغفلات، نجد أنها جميعا تبصرنا بالسبيل إلى بلوغ وحدة الشهود التي هي أولى ثمرات عقيدة التوحيد، وذلك من مثل قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] إلى آخر الآيات، ومن مثل قوله عز وجل: ﴿إنَّ في خلق السَّماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السّماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبثَّ فيها من كل دابة وتصريف الرّياح والسحاب المُسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [البقرة: ١٦٤].

إذن فالمرحلة الأولى من العلاج تبدأ بالعمل على التخلص من ارتكاب المحرمات بالنهج الذي أوضحته لك. فإذا أخذت نفسك بذلك، تخلصت من بلاء الغفلات التي تنسيك عبوديتك لله وعظيم مسؤولياتك تجاهه.. وإذا تخلصت من هذه الغفلات بالإكثار والمداومة على ذكر الله، فلسوف يورثك ذلك حبا وتعظيما لله عز وجل، ولسوف ترقى بذلك إلى رتبة الإحسان التي عرفها رسول الله بأن تعبد الله كأنك تراه.. وإذا استقر بك المقام في هذه الرتبة، غابت عن فؤادك صور الأكوان التي تراها واستقرت في مكانها صفات المكوّن عز وجل، وتتحول المكونات كلها على صفحة فؤادك إلى أسطر نورانية تقرأ فيها باهر مظاهر حكمة الله ورحمته وإكرامه وفضله وتلك هي حقيقة وحدة الشهود التي هي ذروة ما ينبغي أن ينشدَ المسلمُ نفسه إليه من حقائق التوحيد.

الحكمة الثامنة والستون

من رأيته مجيباً عن كل ما سئل، ومعبراً عن كل ما شهد، وذاكراً كل ما علم، فاستدل بذلك على وجود جهله

ثلاث علامات إن اجتمعن في الإنسان، كان ذلك دليلا قاطعاً، فيما يقرر ابن عطاء الله، على وجود جهله.

ولعلّ كل خصلة منها، كافية في الدلالة على جهل صاحبها. ولكن يبدو أن الخيطة في الحكم حملت ابن عطاء الله على أن يعدّ الجهل ثمرة لاجتماع هذه الخصال كلها في شخص واحد.

أما الخصلة الأولى منها: فهي أن نرى الشخص لا يتردد في الإجابة عن كل ما يُسأل عنه.. ووجه دلالتها على جهل صاحبها، أن مناط الأسئلة ومتعلّقاتها، يتسع لكل ما هو موجود مما هو مرئي ومسموع ومشموم ومفهوم. إذ السؤال لا يكلف صاحبه علما ولا فهما، ولكنه يكتفيه الاستفهام فقط. وهو ما يتأتى لكل أحد. والشأن في الاستفهام أن يتعلق بكل ما هو مجهول.

إذن فالاستفهام يتعلق بقسم المجهولات. أما الجواب فلا يتناول إلا قسم المعلومات. ومما لا ريب فيه أن مساحة المجهولات أوسع بكثير من مساحة المعلومات. وصدق الله القائل: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الاسراء: ٨٥].

إن الإنسان إنما يعيش في رقعة صغيرة جدا من هذا الكون الذي لا يعلم مدى اتساعه إلا الله، وهو محصور منه في مساحة ضيقة وداخل دائرة الزمن الحاضر. فمهما امتدت أشعة معارفه، فإنها لن تتجاوز المساحة الضيقة التي يتحرك فيها، ولن يدرك شيئا وراء الزمن الحاضر الذي يتقلّب فيه. وكم من معارف مغلوطة تهجم عليه داخل هذه الحدود الضيقة من المكان والزمان، فيظن توهم علما وتبطل

حقيقة والحقيقة باطلا .. هذا على حين أن مجال التسؤال والاستفهام لا يحده زمان ولا مكان، إذ هو ليس أكثر من تعبير عن التطلع إلى المجهول.

فمن رأيته يجيب، أي جواب العارف، عن كل ما يُسأل عنه، فاعلم أنه يغطي جهله بدعاوي المعرفة والعلم .. إذ قد علمت أنه لا يمكن أن تتساوى مساحة المعلومات مع مساحة القضايا المسؤول عنها، حتى تغطي هذه بتلك.

ولكن ما الذي يدعو كثيرا من الناس إلى هذا ؟

إن الذي يدعو إلى ذلك، الاستكبار .. يربأ أحدهم بنفسه أن يُنعت بالجهل، ولا حيلة له في أن يضع حقائق المكونات وأسرارها، دون استثناء، تحت سلطان معلوماته ومداركه، فيستعيض بدعواه الشمولية العريضة عن الاستيعاب المعرفي الذي لا سبيل له إليه.

فلو لم يكن من آفات هذا التعاليم إلا الاستكبار، لكفى ذلك إجراما في حق العلم ومصدره، فكيف وإن من آفاته الكذب وخيانة الحقائق، والاستخفاف بقوانين الكون وكلمات المكون ؟

على أن الجهل المتعالم يهون خطبه، عندما نستعمل له بضاعة الدنيا، وعندما يكون الخلط والخبط، في مسائل يتقارب فيها كل من وجهي الصحة والبطلان، والخطأ والصواب ...

ولكنه داء لا دواء له، وخطب لا عزاء معه، عندما تكون مادة هذا الجهل المتعالم حقائق دين الله الذي بعث به سائر الرسل والأنبياء، متمثلة في مبادئه الاعتقادية آنا، وأحكامه الشرعية آنا آخر.

بل إنك لتنظر فتجد أن أسوارا من الرقابة تحيط بمجالات العلوم والثقافات الدنيوية على اختلافها، تمنع الجهال المتعالمين من أن يخبطوا فيها خبط عشواء،

وتغلق عليهم سبيل العبث والتقول فيها على غير هدى .. فالعلوم الكونية المختلفة، بل حتى الأدبية أيضا، تتمتع من المجتمعات والقادة المسؤولين بحراسة دقيقة دائبة، ومن ثم لا يتأتى لأي محتال عن طريق التعالم، أن يتسلل إلى حماها، فضلا عن أن يخترق مجالاتها.

فإذا ما تجاوزت مجالات هذه العلوم الدنيوية المختلفة، وأقبلت إلى علوم الإسلام وشرائعه، رأيت نفسك منها أمام ما يشبه كلأ مباحا أو سفحا مفتوحا يجوب فيه الرائح والغادي، دون أي رسم لحدود أو اعتماد لضوابط!..

فما تجد هاويا لشهرة صدّت السبل في وجهه إليها، إلا ويرى في هذا السفح بغيته، وما تجد باحثا عن مجال أوسع للرزق، دون أن يجد لبحثه المطلوب من ثمرة، إلا ويعثر في مجال آرائه وأفكاره الإسلامية التي يبتدعها، على رزقه الضائع، هذا فضلا عن أولئك الذين سدّت أمامهم الطرق إلى الكيد للإسلام والتربص به، بشكل مباشر، فلما نظروا، فوجدوه كلأ للغادي والرائح دون أي شروط أو ضوابط، لم يترددوا في الدخول إلى مجاله باسم الغيرة على الإسلام، والإقبال إليه بالتجديد والتطوير والتحديث..

والجامع المشترك بين أنشطة هؤلاء كلهم، الحديث عنه مع الجهل به، والدخول إلى تفسير نصوصه، مع القصد المستكنّ إلى تحطيم بيانه، وتسويق الفتاوى باسمه تلبية الطلبات والتطلعات المتبرمة بأحكامه.

ومقتضى هذا الواقع أن لا تجد بين هؤلاء، من يمسك عن اقتحام هذه المخاضة، معتذرا بالجهل، إذ الجهل لا وجود له (أي لا إقرار به) أمام هذه الأهداف .. فالأجوبة جاهزة لسائر الأسئلة الدينية، والحلول مرسومة لسائر المشكلات الفكرية أو الاجتماعية، والفتاوى مصنوعة ومهيأة حسب الطلب! ..

ورحم الله العهد الذي حجز الجهل، يحول دون اقتحام هذه الميادين كلها.

كان ذلك عندما أجم فيه المسلمون ألسنتهم عن الخوض فيما لا يعرفون، بل فيما لا يتأكدون من معرفتهم له، خوفا من أن يصدق عليهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» رواه الترمذي وأبو داود. فكان كل منهم يرد أمام جهالته أو شكوكه قول أبي بكر رضي الله عنه: «أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إن أنا قلت في القرآن بما لا أعلم».

روى عبد الرحمن بن مهدي أن رجلا أرسل إلى مالك رحمه الله، من مسيرة ستة أشهر، من الغرب، ليستفتيه في أمور، فأجاب عن بعض يسير منها، وقال له عن سائرها: لا أعلم، فقال له الرجل: فماذا أقول لأولئك الذين أرسلوني إليك بشأن هذه المسائل إن رجعت إليهم؟ فقال له: أخبر الذين أرسلوك أن لا علم لي بها!.. فقال: ومن يعلمها؟ قال له: الذي علّمه الله.

أما جهال هذا العصر، فيحملون أهواءهم في تفسير القرآن لعبا وتمزيقا، لا يصدهم عن ذلك جهل، ولا يردهم عنه وجل ولا خوف، ويحملون أهواءهم في تصدير الفتاوي الخطيرة التي تحمل أحكاما لا عهد للمسلمين من قبل بها.. وإن أحدهم ليندفع إلى الفتوى متضمنة ما براء من الجواب عن الأحكام التي يُسأل عنها، دون أي تحفظ، كما يندفع أحدنا إلى شرب ماء عذب بارد على ظمأ.

فإن جاء من قال: ولكن المنصوص في مصادر التشريعة الإسلامية، خلاف الذي تقول: أجاب قائلا: (تتبدل الأحكام بتبدل الأزمان) وأردف ناقلا عن رسول الله قوله: «يسروا ولا تعسروا».

ولقد تكوّنت من هذه الجرأة العجيبة في الفتاوى على غير هيبة ودون التزام بالضوابط، ما يسمى اليوم بـ (فقه الأقليات) كأن الله أنزل في قرآنه فقهين اثنين:

أحدهما لأكثرية المسلمين في بلادهم، والآخر للأقليات خارج بلاد الإسلام!..
فأصبح الربا المحرم عندهم مباحاً، والنكاح الباطل كنكاح الكافر المسلمة صحيحاً، والذبيحة المختنقة طاهرة، والتعامل بالخمور في محالها أمراً مقبولاً!..

ولست أدري فيم هاجر المسلمون في صدر الإسلام من دار الكفر إلى دار الإسلام ما دامت لهم في (فقه الأقليات) هذه السعة التي ترفع عنهم الحرج وترد عنهم الضيق؟!..

وأما الخصلة الثانية: فهي أن ترى الرجل يروي للناس كلَّ ما شهده، إذ لو لم يكن جاهلاً، لعلم أن الأمانة تقتضي أن يمسك عن الحديث عن أكثر ما قد يراه، إذ كثيراً ما يكون الشيء الذي رآه ثم رواه، عائداً إلى خصوصيات بعض الناس، سواء كان خيراً يحمدون عليه أو شراً يلامون عليه.. إن نشر أخبارهم، على كلا الحالتين، لا يحلّ إلا بعد التأكد من رضاهم بذلك، على أن احتمال عدم الرّضا في الحالة الثانية أكثر منه في الحالة الأولى.

إن ما قد تراه عيناك من خصوصيات الناس، تصدقة أو لمناسبة ما، سرٌ من الأسرار التي استودعها الله عندك ابتلاء.. وإن ما قد يصادف أن تراه من مشكلات أو خصومات، بين اثنين قد يكون دعوة من الله لك أن تكون الطرف الثالث الوحيد معهما، لتسعى مسعيك في حلّ مشكلتهما أو إنهاء خصومتهما، دون ضجيج ولا حديث عنها.. وإن ما قد تقع عليه عيناك من معصية ابتلي بها أخ لك، أمانة كلّفك الشرع بصونها عن أسماع الناس بعد أن صانها الله عن أبصارهم، وإنما الواجب الذي يأمرك به، أن تمدّ رواق الستر على أخيك هذا، وتنفرد معه في نصيحة خالصة محبّة، لا يراكما ولا يسمعكما في محالها أحد، هكذا يقول الشرع، وبهذا جاء الإسلام

لنقارن بين هذا النهج الذي أمرنا به، وبين حال من يتصيد الوقوع على الأخبار والأحاديث، ليقلب فيروسها لكل غاد ورائح، وليتخذ منها موادّ وموضوعات لتسليته وعوامل لجذب الناس إلى الغريب والمستطرف من أحاديثه، إنه هو الآخر دليل ثانٍ على جهله .. أي على جهله بآداب الشرع وأحكامه.

ولكن، أفهو الجهل وحده الذي يدفع كثيراً من الناس إلى سلوك هذا النهج ؟..

الذي أعتقده وأراه أن ثمة عاملاً آخر يقود إلى هذه الرعونات، مع وجود العلم بحرمتها بل بخطورتها!! .. وإذا استحكمت الرعونة، شلّت قيمة العلم في صاحبها وأفقدته أهميته.

كثيرون هم الذين يعلمون أن الله ستير يحب الستر ويأمر به، وأنه لا يجوز للمسلم أن يجلجل بأخطاء أخيه المسلم، ما دامت وقدت في السر وبقيت في الخفاء والسرّ، وأن الإخلاص لله والغيرة على حرمات الله يدعوانه إلى أن يكون عونا له على الستر الذي أضفاه الله عليه، وأن يهمس إليه في نصيحة حارة تشهد على ما يكنّه له في قلبه من غيرة وحب .. كثيرون هم الذين يعلمون هذا كله، ومع ذلك فإنهم يتجاهلون ما يعلمون، في سبيل الاستجابة لما تنطوي عليه نفوسهم في حسد أو حقد وبغضاء.

وقد ذكرت أثناء شرحي لحكمة مضت مشكلة هذا الداء، وأشرت إلى الدواء الواقي منه، فأحيلك الآن إلى ما قد ذكرت، وأضيف إلى العلاج الذي ذكرته لك آنذاك، العلاج الكلي الذي لا ينفك عن الحاجة إليه أحد من الناس، ألا وهو ضرورة تزكية النفس وتطهير القلب من الأمراض الخفية التي سماها الله، باطن الإثم.

ومن مصائب المسلمين في هذا العصر، أنهم – أو أكثرهم – معرضون عن

هذا العلاج ويستخفون به إن ذكرهم به أحد'..

ومن ثم فإنّ قيادة خفية تستقل بتوجيه أنشطتهم ورسم أهدافهم، ألا وهي تلك التي حذر منها وبالغ في التحذير، وسمّاها كما قلت لك: باطن الإثم.

أما سبل تزكية النفس، فالحديث عنها طويل الذيل، ولعل اتباع نصائح ابن عطاء الله في هذه الحكم، واحدة من أهم هذه السبل.

الخصلة الثالثة من الخصال التي تدلّ على جهل صاحبها: أن يتحدث للناس عن كل ما علم من شأن نفسه، أو من الشؤون الأخرى.

أما عما يعلمه الإنسان عن شأن نفسه، فهو إما أن يكون من الشؤون الصالحة التي وفقه الله إليها، أو من الأخطاء التي تاه فوقع فيها.

فإن كان من الصالحات التي وُفق لفعلها، فينبغي أن تمرّ فكرة التحدث بها، برجوع دقيق إلى تلمس العامل الذي يدفع إلى ذلك، فإن أيقن أن العامل هو الإعلان عن شكر الله عز وجل على توفيقه، والتحدث إلى الناس عن عظيم فضل الله عليه، حتى يكونوا شهداء على منته التي تتوارد إليه، دون أن يكون أهلاً لها، فالعلم إذن يقتضي الحديث عنها، عملاً بقول الله تعالى: ﴿وأمّا بنعمة ربّك فحدّث﴾ [الضحى: ١١].

وإن ارتاب في هذا الدافع، وغلب على ظنه أنه مدفوع إلى التحدث للناس بها، تنويها لهم بشأن نفسه، وإعلاما لهم عن حسن حاله، ليعظم في نفوسهم، أو لتعود إليه منهم المنافع، أو ليرفعوا من شأنه في المناسبات وبصدد الأنشطة الاجتماعية، فالعلم إذن يقتضي أن يتكتم على ذلك، وأن يسدل على أعماله الصالحة تلك سترا فوق ستر، لتبقى سرا مكنونا بينه وبين ربه، إذ إن ذلك هو الضمانة - في هذه الحال - لقبول الله لها، ورصد المثوبة عليها.. فإن هو خالف

هذا المبدأ، فأشاع وأذاع بين الناس خبر أعماله الصالحة وأنشطته المبرورة، فقد صنف نفسه، بذلك، في الجهال، إذ لو كان ذا دراية بما ينبغي أن يكون عليه حاله، لما أقدم على ما أقدم عليه.

وأما إن كان من الأخطاء أو السيئات التي تورط فيها، فينبغي أن يعود في هذه الحالة أيضا إلى مساءلة نفسه، عن العامل الذي يدفعه إلى كشف حاله هذه للناس، فإن علم أنه مدفوع إلى ذلك، بقصد المباهاة بخطيئته التي ارتكبها، كما هو شأن بعض الناس، فليعلم أن حديثه لهم بهذا القصد، شر من أصل الخطيئة التي ارتكبها، بل ربما سرت المباهاة بالمعصية، بصاحبها، إلى الكفر في بعض الأحيان.

وإن علم أنه مدفوع إلى ذلك بدافع الشكوى والألم مما قد صدر منه، فذلك من الجهالة بمكان! .. إذ عليه أن يعلم أن الذي ينبغي أن يتجه إليه بالآلام والشكوى واحد لا ثاني له، هو الله عز وجل، إذ هو الذي يملك أن يزيل آلمه وأن يستجيب لشكواه، فيغفر له ذنبه ويصلح له حاله. أما الناس، فما بين شامت فرح بشروده وخطيئته، وعاجز يصغي السمع إليه ولكنه لا يملك من أمره شيئا. فلم يبق أمامه من باب يتجه إليه ويلوذ به إلا باب الله، وصدق سبحانه إذ قال: ﴿ففِرُّوا إلى الله إنِّي لكم منه نذير مبين﴾ [الذاريات: ٥٠].

ثم إن المسلم كما يأمره الله أن يستر ما قد علمه من سوء صدر من أخيه، فإنه جل جلاله يأمره أيضا أن يستر عن الناس السوء الذي صدر من شخصه هو، إذ المبدأ المطلوب واحد، لا يختلف حكمه باختلاف الأشخاص.

وبهذه المناسبة، ألفت نظر الإخوة الذين يتوبون إلى الله بعد انغماس في حمأة المعاصي والأوزار، إلى أن التوبة الصادقة تمحو كل الخطايا والآثام، مهما كانت كبيرة، ولو كان ارتكابها يستوجب الحد .. ومن ثم فإن المطلوب من هؤلاء التائبين

أن يستدبروا ماضي آثامهم وانحرافاتهم، وأن يستقبلوا من حياتهم عهداً جديداً يفيض بفضل الله وإحسانه وعفوه. وليعلموا أنهم قد ولدوا باصطلاحهم مع الله ولادة جديدة. فإن استطاعوا أن ينسوا ماضيهم قبل هذه الولادة فليفعلوا.

والمعاصي التي تستوجب الحد، إنما تستوجبه عند ارتفاع الأمر إلى الحاكم وثبوت المعصية أمامه بشهادة شرعية مقبولة، أو بإقرار من صاحب المعصية.. والمطلوب شرعاً منه أن يلوذ بكنف من ستر الله، وأن لا يحدث القاضي ولا يخبره بمعصيته.

نعم، يستثنى من عموم هذه المعاصي التي تمحوها التوبة الصادقة، المعاصي التي فيها انتهاكات لحقوق الناس، فلا بد لمغفرتها من إعادة الحقوق إلى أصحابها أو مسامحتهم وتجاوزهم لها.

وأما ما يعلمه الإنسان من المعارف والشؤون الأخرى، فقد علمت أنه لا يجوز لأحد من الناس أن يفضح الناس في أسرارهم، وقد أوضحت لك ذلك عند الحديث عن الخصلة الثانية من هذه الخصال الثلاث.

بقيت المعارف العامة الأخرى التي قد يتميز بها بعض الناس.

إن العلم بمبادئ الإسلام وآدابه، وآداب الدعوة إلى الله، يقتضي أن يفرق المسلم بين المعلومات التي يُصلح الناس ويفيدهم الحديث عنها، والمعلومات التي تشوش أفكارهم وتزجهم في وساوس أو ضياع.

ليس كل مسلم مهيأ لإدراك كل معلومة تتعلق بالإسلام أو غيره، ثم إن المعارف الإسلامية ليست، كلها متسقة في درجة واحدة من الأهمية، بل هي متفاوتة الترتيب في الإدراك، كما أنها متفاوتة في الأهمية ومدى الحاجة.

ومن ثم فهي تخضع عند الإقبال إلى معرفتها لما يسمى بقانون سلّم

الأولويات. وبيانا لهذا كله يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حدثوا الناس بما يعرفون. أتريدون أن يكذب الله ورسوله» رواه البخاري من حديث علي رضي الله عنه موقوفا - وهو في مسند الفردوس عنه رضي الله عنه مرفوعا.

ثم إن لكل مقام مقالا .. فالحديث الذي يواجه به الملحد مثلا، غير الحديث الذي ينبغي أن يخاطب به المسلم العاصي. والمستشكل المثقف الذي يحمل في ذهنه أوقارا من الشبهات، يحتاج إلى حجج وبيانات لا يحتاج إليها الجاهل العامي الذي يسأل عما يحيره من جهالته.

وعلى سبيل المثال، فإنّ علم الكلام الذي يتضمن الحجج المنطقية والفلسفية على الحقائق الاعتقادية، دواء لا يصلح إلا لمن تسربت إلى عقولهم أمراض الشبهات الفلسفية، فإن عولج به العاقلون من هذا الداء، تحول إلى جراثومة داء قد يستتر في عقولهم.

ومن أمثلة ذلك أيضا، بعض الموضوعات التي يعالجها فريق من خطباء المساجد في خطبهم، يصادف أن يكون الخطيب قد اطلع على بعض المعلومات التاريخية أو الاجتماعية أو نحوها، مما لا شأن لسواد الناس الذين يفيض بهم المسجد بشيء منها، وتكون رغبته في أن يلفت نظر الناس إلى ما يتمتع به من معارف قد لا يعرفها الآخرون، فحجبه عن توجيه الناس إلى ما يفيدهم، وعن دعوتهم إلى إصلاح أمورهم وتدارك أخطائهم. ومن المعلوم أن خطبة الجمعة يجب أن تدور على محور الإنشاء المتمثل في الأمر والنهي من خلال النصح، لا على محور الإخبار والإعلام القصصي أو التاريخي أو التنويه بحال بعض الناس ثناء أو تجريحا .. فإن عرض الخطيب لذكر خبر يتعلق بحادثة، فينبغي أن يكون ذلك محصورا بالقدر الذي يجعل منه مقدمة أو عبرة بين يدي نصيحة مفيدة للحاضرين

تتمثل في أمر أو نهي.

وكم هو عمل شاق وخطير، القيام بمهمة خطبة الجمعة!!..

يدرك ذلك كل من يعلم أن خطيب الجمعة إنما يمثل شخص رسول الله، إذ كان بين أصحابه يخطب فيهم كل جمعة على منبره. أفترى أن أداء الخطيب اليوم، للدور الذي كان رسول الله يؤديه بالأمس، شكلاً ومضموناً، أمرٌ هين ويسير؟!..

وبعد، فتلك هي الخصال الثلاث التي تدل على جهل صاحبها، كما قال ابن عطاء الله.

فإن لم يكن صاحب هذه الخصال جاهلاً، وبقي متشبثاً بها، فمردّ ذلك إلى جهالة من نوع أشدّ وأخطر.

ذلك لأنه يتبع في هذه الحالة رعونة نفسه، ووحي شهواته وأهوائه، ولا يصدر عن هذا الاتباع إلا من أشدّ أنواع الجهالة خطراً على صاحبها.

إنه لو علم مغبة انقياده لوحي أهوائه وأغراضه، معرضاً في سبيلها عن تعاليم مولاه وخالقه، لما آثر الإعراض عما فيه ضمانة سعادته ورضا مولاه عنه، في سبيل أهوائه التي لا ريب في أنها ستورده المهالك، وتزجه في نيران من الندم.

الحكمة الرابعة والأربعون بعد المئة

متى كنت إذا أُعْطيت بسطك العطاء، وإذا مُنِعْت قبضك المنع، فاستدلّ بذلك على ثبوت طفوليتك، وعدم صدقك في عبوديتك

لعل المراد بالعطاء هنا، النعم والمنح الدنيوية على اختلافها إذ يتفضل الله بها على العبد، والمراد بالمنع حجب هذه النعم أو بعضها عنه.

إذ لو فُسِّر العطاء والمنع بما يشمل المنح الأخروية والنعم الدينية، كالتوفيق لمزيد من الطاعات والقربات، لأشكل الحكم الذي رتبه على كلٍّ منهما ابن عطاء الله.

فمن رأى نفسه مؤيداً بتوفيق الله عز وجل للنهوض بالطاعات وأداء القربات على وجهها السليم وبقصد سليم، لا بدّ أن يستبشر لذلك وأن يفرح بمصاحبة هذا التوفيق الإلهي له، وهذا هو البسط بعينه، ومن رأى نفسه مبتلى بالمحرمات والآفات، لا بدّ أن يضيق منه الصدر لذلك وأن تأخذ مخافة الله أو الحياء منه بمجامع نفسه، وهذا هو القبض بعينه، وكلٌّ من القبض والبسط هنا من مقتضيات صدق الإيمان بالله وكمال المراقبة له.

لا جرم إذن أن المراد بكلٍّ من العطاء والمنع ما يتعلق بشؤون الدنيا ونعمها وخيراتها.

فالمسلم الذي إذا رأى نعم الدنيا تتوارد عليه، استبشر وفرح وظن في نفسه أنه إذن من المقربين إلى الله، وأنه من هذه النعم أمام الدليل على رضا الله عنه، والذي إذا رأى هذه النعم تفوته وتتأبّى عليه، ضاق ونال منه الكرب إما لفوات

حظه الذي يطمع به من الدنيا، أو ما قد يوهمه ذلك من أنه أمام الدليل على سخط الله عليه وغياب رضاه عنه، يعاني من ضعف في تفكيره وعجز في إدراكه، فهو كالطفل إذ يكون عقله محبوساً في نظره، إن رأى بين يديه ما يبهج العين، استبشر به، ولم يأبه لما وراءه ولا للذيول المنوطة به، وإن رأى أمامه ما يكدر العين مرآه، ويفقده بهجة نفسه ورغائب أهوائه، استوحش وضاق به ذرعاً، دون أن يتنبه إلى ما قد يكمنه له في طياته من آمال مسعدة.

فهذه هي خلاصة ما نعنيه هذه الحكمة.

وهي في جملتيها حصيلة آيتين في كتاب الله تعالى، أما أولاهما، فقوله عز وجل: ﴿قُلْ بفَضْل الله وَبرَحْمَتِه فَبذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وأما الثانية فقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوال وَالأَنْفُس وَالثَّمَراتِ وَبَشّر الصّابرِينَ، الَّذِينَ إذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إنّا لِلّهِ وَإِنّا إلَيْهِ راجعُونَ، أُوْلَئكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وتلتقي هاتان الآيتان على جامع مشترك يعبر عنه قول الله عز وجل: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالآية الأولى تقرر أن الخير لا يكمن في مال تجمعه أو بناء تشيده، أو مزارع واسعة تملكها، أو متع وأهواء تحققها، فربما تهيأ لك ذلك كله ولم يزدك إلا كرباً وآلاماً وشقاء، وإنما يكمن الخير في أن يتجلى الله عليك تجلّي لطف ورحمة، فمنه تتفجر مشاعر الخير والأنس والسعادة، حتى وإن لم يتحقق لك من كل تلك المبتغيات المادية والمالية شيء.. كم من أناس اتسعت تجاراتهم وكثرت أموالهم، وتنامت ممتلكاتهم، فتزايدت معها في نفوسهم الهموم والكروب، وتكاثرت عليهم

ألوان الرزايا والمصائب، دون أن يتبينوا أي موجبات لها، ومن ثم فلم يجدوا من سبيل للتخلص منها .. ولو أنهم تدبروا كلام الله ووقفوا بالتأمل عند مواعظه، لعلموا أن القلوب هي مصدر السرور والكآبة، وأنها بين أصبعين من أصابع الله، يتجلّى عليها بألطافه ورحماته فتفيض بمشاعر السرور، ويبعث فيها إلى الوجه عوامل الضحك والحبور، أو يتجلّى عليها بمقته وجبروته فتفيض بمشاعر الكآبة والهم، ويبعث منها إلى الوجه عوامل الغبرة والكرب، فلا الفقر أو العدم يستطيع أن يدخل شاشة كئيبة على النفس أو الوجه في الحالة الأولى، ولا المتع أو الأموال تستطيع أن تدخل بارقة التفاؤل عليها في الحالة الثانية، وصدق الله القائل عن ذاته العلية: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ [النجم: ٤٣] أي أضحك بإدخال مشاعر السرور إلى القلب، وأبكى بإدخال مشاعر الأسى والغموم إليها.

وأما الطائفة الثانية من الآيات، فهي تقرر هذا المعنى، بل هذه الحقيقة ذاتها، ولكن بنهج معاكس للطريقة السابقة إليها.

إنها تقرر أن ما يراه الإنسان مصائب في الظاهر، من الخوف والجوع ونقص في الأنفس والأموال والثمرات، هو ليس كذلك إلا فيما تتوهمه النفس وتتخيله الأهواء التي تفرّ دائما منها إلى نقائضها.

وإنه ليس بين الإنسان الذي يتعرض لشيء من هذه الابتلاءات، وبين أن يستقبلها وقد عادت في مشاعره، منحا وصحا ومبعث أمن وطمأنينة ورضا، إلا أن يتعرض للنفحات الإلهية ولتجليات الرحمة الربانية، وإذا بمعنى المصيبة قد غاض منها وبظلال الوحشة قد غاب عنها، وعندئذ يستقبلها بقلب لا محل فيه للهم أو الكرب، لأنه فياض بالرضا عن الله منتش بمشاعر الثقة بحكمة الله ورحمته.

إذن لا تبحث عن سعادتك في العوامل والأسباب المادية التي تراها عيناك،

بل ابحث عنها في أسباب رضا الله عنك ورحمته بك. فإذا انهمرت عليك الدنيا لا تنتظر أن يكون نعيمك وسرورك عن طريقها وبسببها. وإذا تسربت إليك المصائب، لا تتوهم أنها ستكون السبب في شقائك والامك. بل اعلم أن قلبك في كل الأحوال بيد الله. يبعث فيه مشاعر السرور والحبور عندما يشاء وكيفما يشاء، ويسرّب إليه عوامل الكآبة والحزن عندما يشاء وكيفما يشاء. وليست الأسباب الظاهرة التي تراها فتخدع بها إلا جنودا تحت سلطان الله. يسخرها لما يريد. وهذا هو الذي يجعلك تفاجأ بالخير والسرور منبعثا مما توهمه سببا للكآبة والشرور، وهو الذي يجعلك تفاجأ بالضيق والهم منبعثا مما تتوهمه سببا للسعادة والنعمى. وصدق الله القائل: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

هذا كله من حيث الآثار الدنيوية لمظاهر العطاء والمنع، على حد تعبير ابن عطاء الله رحمه الله.

أما من حيث الآثار الدينية فالأمر أخطر من ذلك.

قد تنهمر عليك الدنيا بأصنافها، فتنة واستدراجا لك. والشأن فيها عندئذ أن تورثك المهالك. وتكون الدنيا عندئذ في إقبالها إليك أشبه ما تكون بشراب يغريك بريقه، ويلذّ في فمك طعمه، حتى إذا وصل منك إلى الجوف، تخبطت منه نفسك ونالتك دُوَار وهاجت في جسمك منه آلام.

وأنت لا تدري على أي الوجهين أقبلت هذه الدنيا إليك؟ أعلى وجه المنة والإكرام، أم على وجه الاستدراج والابتلاء؟ لا جرم إذن أن سرورك بإقبالها دون أن تتأمل وتتبين الوجه الذي أقبلت به إليك، سذاجة كالتي يعاني منها الأطفال.

وليس لك أن تزكي نفسك من الشوائب، وتطمئن إلى أنها ما أقبلت إليك

إلا على وجه الإكرام بها من الله لك. فإن نزعك لنفسك بهذه الشهادة واطمئنانك إلى أنها نعمة أسديت لك وليست فتنة امتحنت بها، من أوضح الأدلة على أنها إنما أرسلت إليك على وجه الاستدراج، وأنها ليست إلا فتنة لك.

وقد ذكرت لك في مناسبة مرت أنه لما سيقت إلى عمر بن الخطاب في خلافته غنائم الفرس على أعقاب حرب القادسية، قال: «اللهم إنك صنعت هذا رسولك ونبيك، وكان أحب إليك مني وأكرم عليك مني، وصنعته أبا بكر وكان أحب إليك مني وأكرم عليك مني، فأعوذ بك أن تكون أعطيتنيه لتمكر بي» ثم بكى حتى رحمه من كان عنده.

فمن ذا الذي يملك أن يزكي نفسه من الشوائب، أمام فتنة المال، بعد عمر بن الخطاب، واتهامه نفسه بهذا الذي رأيت؟

هذا من حيث العطاء وإقبال الدنيا إليك.

أما من حيث المنع وإدبار الدنيا عنك، فما أكثر ما يكون هذا المنع، على اختلاف أنواعه وأشكاله، رسول محبر إليك ... كأن تكون مثقلا ببعض الأوزار والتبعات، فيبتليك الله تعالى بنقص في المال أو تمرض في الجسم أو بموجب من موجبات الهم والغم، ليجعل لك منه كفارة لأوزارك وطهورا لتبعاتك، وقد علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر، يوم جاءه يقول مضطربا خائفا بعد نزول قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، كيف الفلاح بعد هذه الآية، فكل سوء عملناه مسجزى به؟ فقال له رسول الله: «يغفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض، ألست تنصب، ألست تحزن، ألست تصيبك اللأواء؟» قال: بلى، قال: «فذلك ما تجزون به».

إذن فكثيرا ما تكون الصورة عطاء والمضمون منعا وابتلاء، وكثيرا ما تكون

الصورة منعا والمضمون عطاء وتكريما. والعاقل هو الذي لا يجعل من نفسه أسيرا للشكل ذاتها عن المضمون.

وقد ذكر ابن عطاء الله هذا المعنى أو قريبا منه، في حكمة سابقة وهي قوله: (ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك)، فعد إن شئت إلى ما قلته في شرحها، لتستكمل ما ينبغي أن نعلمه في هذا المعنى، والله المستعان.

الحكمة الثالثة والسبعون بعد المئة

إن أردت ورود المواهب عليك، صحح الفقر والفاقة لديك

(إِنَّما الصدقة للفقراء)

الإنسان أيا كان، وفي سائر الأحوال والظروف والتقلبات، عاجز وفقير إلى الله، إنه فقير إلى الله في وجوده الذاتي، فكيف لا يكون فقيرا إليه في أوصافه العارضة؟ وصدق الله القائل: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

ولكن فيهم من يتيه عن حقيقة فاقته وفقره، بسبب عوارض المنن ولمح الآنية إليه من ربه، فيستغني بها عنه، ويحجب بها عن واقع افتقاره إليه.

وإنه لعجيب حقا أن يتصدق غني بقيمات من طعام على فقير مدقع، فتنسيه القيمات فقره، ثم يتباهى بها عليه، ويرى في نفسه أنه قد بلغ بها قمة الشموخ والاستغناء!..

وتلك هي حالة من أنساه إكرام الله له فاقته وافتقاره إليه، بل إن هذه لأعجب من تلك، فإن احتياج الإنسان إلى الإنسان حالة عارضة أما احتياج العبد إلى مولاه ومالكه فحقيقة ذاتية ثابتة.

ونظرا إلى شيوع هذه الحالة وكثرتها، يقول ابن عطاء الله:

إن أردت أن يكرمك الله بالفتوحات العرفانية والمواهب اللدنية، وأن يجعلك محلا لعنايته وأن يتجلى عليك بلطفه ورحمته، فاتخذ إلى ذلك سبيلا من التحقق بافتقارك إليه، والرجوع بالاستسلام إلى واقع فاقتك بين يديه.

فإن أنت تجردت من أوهام حولك وقوتك، ووقفت موقف الذل والفاقة بين

يدي الله في كل الأحوال، أثناء إقبال الدنيا بكل أمجادها وزخارفها إليك، وأثناء إعراضها عنك ونسيانها لك، موقنا بأنك في ملكوت الله لا شيء، به تحيا وبه تستمر وجودك، وبه عرفته، وبه نصول ونجول ونغدو ونروح .. أقول: إن أنت تجردت عن أوهام حولك وقوتك كليا بهذا الشكل، جعلك الله في كلاءته ومتعك بقوته وأحاطك بحمايته، وأمدك بتوفيقه، ورحم فاقتك وضعفك بالمغفرة والصفح.

فهذا هو المعنى المراد بتصحيح الفقر والفاقة.

وإنه لأمر عسير إلا على من يسر الله ذلك له. أجل .. إنه لمن العسير أن يتحرر الإنسان من أوهام قوته السارية في كيانه، فيجزم أنه ضعيف وأنه لا يملك من هذا الذي يسري في كيانه شيئا ... وإنه لمن العسير أن يتحرر الإنسان من أوهام غناه المتمثل في الكنوز التي يبسط يديه عليها ويتصرف بها كما يشاء .. وإنه لمن العسير أن يتحرر الإنسان من أوهام علومه التي يتحدث عنها ويتبجح بها ..

ذلك لأنه يمارس هذه الأوهام، ممارسة المالك لها والمهيمن عليها، ويستمر ذلك منه ويتكرر بلطف وتمكين من الله عز وجل، فتستيقظ من ذلك عوامل الطغيان والاستكبار بين جوانحه، فيقرر عند نفسه ما قرره قارون عندما آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة، قائلا: إنما أوتيته على علم عندي.

وهذا الطغيان المتبجح هو أيضا مظهر من مظاهر ضعف الإنسان، إذ سرعان ما تعصف بعصافته وعقله هذه الأوهام، فينسى أنه كتلة افتقار وعجز تحت سلطان الله وحكمه، وينسى أن كل هذا الذي يتمتع به ليس إلا من عطاء الله وفضله ورحمته، ويوشك أن يستلب ذلك كله منه في لحظة واحدة، فإذا هو أمام هويته الحقيقة، عبد مملوك لله لا يملك من أمر نفسه شيئا.

واعلم أنه لا مطمع في أن يحظى المسلم برتبة العصمة من النقائص والأوزار،

مهما بذل وحاول، بل ليس هو المطلوب منه لبلوغ مرضاة الله عز وجل، وإنما السبيل المفتوح أمامه والمطلوب منه السير فيه، أن يعلم منتهى فقره وهو يتقلب بين كنوز، وملاخرائه، وأن يعلم منتهى ضعفه وهو يتمتع بأوج قوته، وأن يعلم شدة ضآلته وجهله وهو يرى الدنيا كلها تنهل من معرفته وحكمته، وأن يعلم بالغ تقصيره وعظيم إساءته في جنب ربه وهو الصوام القوام الذاكر المنقطع لخدمة الله وعبادته.

هذا هو المطلوب من الإنسان: أن يتمتع بهذه الأعطيات كلها، على أن يتجرد في الوقت ذاته من أوهام امتلاكه لها، وأن يتحقق بعبوديته الغارقة عن كل ما قد يشوبها.

فإن هو أنجز هذا المطلوب، فإن المغفرة لا تضره، وإن مظاهر فاقته وضعفه تقربه ولا تبعده، كيف، وقد غدت - بعد تحققه بها - سفينة نجاته من سائر الآفات والأخطار .. إن قصّر وأخطأ زاده ذلك شعورا بضعفه وفاقته، ودفعه إلى مزيد من التذلل على أعتاب مغفرة الله وعفوه، وإن هو استقام وأحسن، زاده ذلك أيضا شعورا بمنة الله وتفضله عليه، ورأى نفسه مغمورا بكرم الله وصفحه، إذ قبله واقفا عليه داخلا إلى ساحة ضيافته وإكرامه.

والواصلون، إنما قطعوا المفاوز القاتمة بين نفوسهم وبين الله عز وجل، بسلوكهم هذا السبيل .. وما هي المفاوز التي تبعد الإنسان عن مقام القرب من الله؟ .. إنها رؤية النفس والتربع على كرسي الـ«أنا» بدلا من المثول في محراب اللاشيء بين يدي من بيده كل شيء ومرد كل شيء ومن هو المالك لكل شيء.

وإنما قطع الواصلون هذه المفاوز، وأقبلوا إلى الله لا يحملون إليه إلا فاقتهم وانكسارهم وفقرهم، متجردين عن أوهام حولهم وقوتهم، حققت لهم الصدقات

من الغني الأوحد والكريم الصمد، وهل يستحق الصدقة إلا الفقير؟ فتوارَدت إليهم المواهب، وامتدت أمامهم الموائد، وتجلّى الله عليهم بألطافه وعجيب إيناسه.

وإنما كان سبيلهم التوحيد إلى ذلك، تلك المفاوز النفسية التي قطعوها وتجاوزوها، حتى صفا لهم ورْدُ العبودية الصادقة المحضة لله.

وانظر بتدبر إلى عظيم ما يبدو لك من أهمية هذا الورد في قول الله تعالى، وهو يقطع آمال الشيطان من إغوائه السالكين في هذا الطريق إليه: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] فليس المراد بالعباد هنا كل من كان مطبوعاً بطابع العبودية لله، أيا كانت نحلته ومذهبه ودينه، وإنما المراد الذين تحققوا بوصف العبودية لله ثم سلكوا إليه هذا السبيل، لا يملكون إلا فقرهم وضعفهم وكامل احتياجهم إليه.

فهؤلاء مكلوؤن بعناية الله محفوظون في حرزه، مستظلون برحمته، حتى وإن تورطوا في الآثام ونال الشيطان منهم منالا، لأن سلطان عبوديتهم لله - وقد سلك بهم السبيل الذي ذكرته لك - يثير بين جوانحهم مشاعر الندم ويقودهم إلى باب الإنابة والتوبة كلما زلت بهم القدم ونال منهم الضعف، فيتوب الله عليهم ويصفح عنهم .. وهكذا، كلما فرح الشيطان بإغوائهم، ناله الكرب الخانق بتوبتهم وتذللهم وانكسارهم، وصدق الله القائل: ﴿وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

إذا وفقك الله للطاعات ويسّر لك سبيل الاستقامة على شرعه، فلا ترينّ لنفسك أي فضل في ذلك، واعلم أن الله هو المتكرم عليك إذ جعلك أهلا لطاعته وشرّفك بالاستقامة على شرعه.

وإذا تغلّبت عليك غرائزك وقادتك نفسك إلى ما نهاك الله عنه، فاذكر فاقتك

وعجزك، وأقبل إلى الله مستجيرا من ذنوبك بعفوه، واشك إليه ضعفك وتبرأ إليه من أوهام حولك وقوتك.

وإذا رقصت النعم في دارك، وازدهرت العافية في جسدك، وتكاثر المال في يدك، فلا تنسين فقرك وعجزك، واذكر أنك إنما تجلس من ذلك كله على مائدة الرحمن، ويوشك - إن أراد - أن يطردك منها فإذا أنت جائع عار شارد عن الأهل والدار، تعاني من الأسقام والآلام.

واعلم أنك إن ألزمت نفسك بهذا اليقين، وحصنت من حياتك بحصن الافتقار، في كل الأحوال وسائر التقلبات، رضي الله عنك وأرضاك، وإن كانت بضاعتك في الطاعات مزجاة.

ثم اعلم ألا طريق لك في الوصول إلى الله إلا هذا الطريق، وإنه لطريق قصير، ولكن عقباته كثيرة، وحظوظ النفس فيه عديدة، ولذلك قل السائرون فيه، كما قال سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله روحه.

Damascus University Publications

College of Sharia

the fourth year

Ethics and Self Purification

Part of English Language

University of Damascus **2020 - 2021**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

Morals and Values in Islam[1]

The Purpose of Morals:

Ethics deals with the principles of good and evil, and shows how people should treat one another, it sheds light on the aim they should seek, and illuminates their way to what should be done.

No doubt morality is the basic pillar that keeps the structure of a nation firm that is why scholars and philosophers agree on its importance to the welfare of the individual and the community. Since the individual harms himself when he follows the course of evil through envy, deceit and the like, a society would decay when such qualities spread among its members.

Consequently, the first step that philosophers and legislators have highlighted is to advocate refined morality, because it is the basic pillar in the structure of every healthy nation. Chateaubriand even considers morals as the foundation of every society. That is why the message of

(١) هذا النص مأخوذ بتصرف وتحرير من كتاب "The spirit of Islam: Doctrine and Teachings". وهو في الأصل ترجمة لكتاب "روح الدين الإسلامي" للأستاذ عفيف طبارة، وترجمة الأستاذ حسن شقير، ومراجعة الدكتور روحي بعلبكي.

prophets was to urge people to hold to refined morals. The Koran emphasizes the necessity for adhering to them, since it is these morals which secure the attainment of paradisal bliss to people.

1 - Righteousness and Spiritual Promotion and Purification:

Man's life is engulfed in good and evil, and he is often driven to one of them by inner motives or outside factors.

Among the basic goals of religion is to protect man against the temptation of evil, by revealing its harm, warning against it, and calling on its victims to turn to righteousness as God instructed mankind. This is because righteousness leads to moral promotion and brings well - being and peace to people.

If man is not armed with righteousness, his embarkation upon good becomes weaker, and he gets easily exposed to involvement in vice. Islam gives special care to righteousness, offering God's promise of good reward unto the righteous in both the present world and the hereafter. God says:

“As for those who say, ‘Our Lord is God,’ and take the straight path towards Him, the angels come down to them and say, ‘Have no fear or grief, but rejoice in the good news of Paradise, which you have been promised. We are your allies in this world and in the world to come, where you will have everything you desire and ask for as a welcoming gift from the Most Forgiving, Most Merciful One”. (41: 30 - 32).

God further assures righteous people, saying: “For those who say, ‘Our lord is God,’ and then follow the straight path there is no fear, nor

shall they grieve". (46: 13).

A man once came to God messenger Mohammed (peace be upon him) and asked for advice. The prophet answered in brief, saying: "say: I have faith in God, and stay upright".

Spiritual promotion:

Spiritual promotion goes hand in hand with uprightness because involvement in evil leads one and the whole community to very bad consequences. That is why God promises those who amend their spirits, with forgiveness and contentment: "But if anyone repents after his wrongdoing and makes amends, God will accept his repentance: God is most forgiving, most merciful". (5: 39).

God addresses mankind, calling on them to amend themselves: "Children of Adam, when messengers come to you from among yourselves, reciting My revelations to you, for those who are conscious of God and live righteously, there will be no fear, nor will they grieve". (7: 35).

Spiritual purification:

The "Spiritual purification" referred to in The Koran, also goes hand in hand with uprightness. Spiritual purification combines the cleanliness of one's heart from corruption and rising above disgrace so that one can attain his share of God's contentment, as well as dignity among people.

The Koran urges people to purify themselves, promising those who do so with prosperity: “Prosperous are those who purify themselves”. (87: 14). “The one who purifies his soul succeeds, and the one who corrupts it fails”. (91: 9 - 10).

God then explains that Spiritual purification will benefit firstly those who embrace it; that are why one should keep one's care for this purity: “whoever purifies himself does so for his own benefit, everything returns to God.” (35: 18).

Uprightness and the promotion and purification of the spirit give hope to those who are already indulged in vice, so that they might change for the better. This helps keep despair away from their hearts and make their amendment possible and easy; because when one falls a prey to despair, he turns into a helpless victim of evil.

2 - Beneficence:

Beneficence denotes charity and kindness, but it covers a wider range of meaning. It includes the doing of good as opposed to the doing of evil.

Good deeds include all kinds of virtuous and humane treatment that discipline one's character and bring him closer to the Creator. In this sense, the Commandments of The Koran call for beneficence and induce people to practise it in their daily living.

The Koran deals with beneficence in a way that leaves a strong impact on people especially regarding their motive for work. It explains the qualities of philanthropists, specifies certain groups of people who deserve charitable donations more than others, and calls on people to do Beneficence so that they may achieve the noble and refined ideals that philosophers and reformers are still calling for.

The Worth of Beneficence in Islam:

The Koran explains that the doing of beneficence should be the natural duty of every person, and that, as God has bestowed His blessings on man; the latter should likewise be beneficent to others: “Do good to others as God has done good to you” (28: 77).

Similarly the Koran explains that the reward of beneficence shall go in fact to those who do it: “whether you do good or evil it is to your own souls”. (17: 7).

This is because philanthropists experience a sense of peace which

others do not. It suffices that they are met with amity, affection and high esteem from those to whom they are beneficent, which enters satisfaction into their hearts. Evil, however, makes its people rejected and despised, and rob comfort and stability from their hearts.

God commands people to do beneficence and puts a special emphasis on it by saying: “God commands justice, doing good, and generosity towards relatives and He forbids what is shameful, blameworthy, and oppressive.”(16: 90).

The Koran gives a special worth to beneficence and links it with devotion to God, describing both as the noblest qualities of a pious person: “Who could be better in religion than those who direct themselves wholly to God, do good”. (4: 125).

God explains the reward of beneficence, saying: “Whoever directs himself wholly to God and does good work has grasped the surest handhold, for the outcome of everything is with God.” (31: 22).

In other words, he has grasped the most reliable means that leads to God’s contentment.

God also urges people to do good by saying: “Whoever has done a good deed will have it ten times to his credit” (6: 160).

And he promises those who do good with good reward and peace on the Day of Resurrection “whoever comes with a good deed will be

rewarded with something better, and be secure from the terrors of that Day" (27: 89).

Some Qualities of philanthropists:

Among the qualities of philanthropists, as stated in the Koran, is that they stay up most of the night praying, and as night approaches its end they plead forgiveness from God. They reserve part of their money to give to the poor and the deprived so that they may meet their needs: "The righteous will be in Gardens with [flowing] springs. They will receive their Lord's gifts because of the good they did before: sleeping only little at night, praying at dawn for God's forgiveness, giving a rightful share of their money to the beggar and the deprived" (51: 15 - 19).

Another quality of beneficence is the great effort made in the Cause of God, both in body and money: "But We shall be sure to guide to Our ways those who strive hard for Our cause, God is with those who do good". (29: 69).

Beneficence also includes adherence to the Message of Mohammad: "It is the one who brings the truth and the one who accepts it as true who are mindful of God. They will have everything they wish for with their Lord. Such is the reward of those who do good". (39: 33_34).

Forgiveness is another attribute: "Overlook and pardon them God loves those who do good". (5: 13).

Patience also has its share here: “Be steadfast: God does not let the rewards of those who do good go to waste”. (11: 115).

The reader must have noticed the way the Koran leads people to do good, promising them with all they wish for. Because people of good enjoy a sensitivity of feeling and a vivid conscience. When they are stricken by rejection or ingratitude from their community, the Koranic Commandments hurry to console them, reduce their dejection, and provide them with the good tiding of God's Contentment.

Those who deserve beneficence more than others:

The Koran specifies certain groups of people who are worthier of beneficence than others. In the first place come the parents. God says: “Your Lord has commanded that you should worship none but Him, and that you be kind to your parents. If either or both of them reach old age with you, say no word that shows impatience with them, and do not be harsh with them, but speak to them respectfully and lower your wing in humility towards them in kindness and say, Lord, have mercy on them, just as they cared for me when I was little”. (17: 23 - 24).

This Koranic passage shows how God couples His worship with acts of beneficence conferred on parents especially when they attain old age. Five points are mentioned in particular, so that the son may show utmost

kindness to them:

1- He should not show contempt of what they say or do.

2- He should not disturb them with words of repulsion.

3- Instead, he should talk nicely and respectfully to them.

4- He should humble himself to them with a sense of mercy, like a mother bird lowers her wings in tenderness to keep her little ones close to her, and

5- Out of gratitude, he should plead to God to bestow His Mercy on them.

Similarly, The Koran specifies further acts of beneficence to be conferred on other groups of people who might be either relatives or neighbors of the person, or those who have lost their means of support and thus now deserve it from others. God says: “Worship God; join nothing with Him. Be good to your parents, to relatives, to orphans, to the needy, to neighbors near and far, to the companion by your side, to travelers in need, and to your slaves. God does not like arrogant, boastful people”. (4: 36).

The verse above combines a wide range of good deeds, which, when people abide by, spread a general well - being among all of humanity. At the beginning comes the worship of God. Then comes being good to parents, and to relatives like brothers, uncles and their children,

and to other relatives, which might lead to the promotion of the nation, for a nation consists mainly of groups of families. Then God commands people to do good to orphans because they have lost their supporter.

When an orphan is neglected, he turns into a harmful member of society because of ignorance and moral negligence.

Similarly God commands good be done to neighbors of kin and those not of kin, so that the residents of the same quarter may live with affection binding them together, and that they may cooperate on terms good. Then God recommends good be extended to one’s companions, or that those who share one a travel or are one's associates at school, at work, or elsewhere. Being good to such people establishes a firm companionship which results in abundance and contributes to the general welfare. Then God instructs good be conferred on the way - farer, especially the one who has lost his money on the way before arriving at home. And here also are included those whom your right hands posses, or the dumb animal captives and human slaves that one owns, doing good to these means the deliverance of slaves and treating them kindly.

3 - Tolerance in Islam:

Disputes among disciples of religions:

With a look at history, one finds that disturbances of peace were mostly due to religious disagreement. Sects never tired of revolting against those who held opposite beliefs, which led to savage massacres that left a blot of disgrace on the brow of humanity. No doubt this was due to instructions made by religious and sectarian authorities to their subjects against those who adhered to other religions and sects.

Some European thinkers falsely hold that religious freedom and tolerance has been recently established, but this belief is not true because the freedom of religion was actually established by Islam fourteen centuries ago, and to approve this, one can refer to the Koran, to the sayings and the biographies of the prophet, and to the early history of the Muslims.

Freedom of religious belief:

While leaders of most religions instructed their followers to use coercive means to make others adopt their faith, which led to the murder of thousands, one notices that Islam instructs its adherents never to compel anyone to give up his faith and embrace Islam. “There is no compulsion in religion, true guidance has become distinct from error, so whoever rejects false gods and believes in God has grasped the firmest

hand - hold, one that will never break. God is all hearing and all knowing". (2: 256). "Had your Lord willed, all the people on earth would have believed. So can you [Prophet] compel people to believe?"(10: 99).

In other words, it was neither in Mohammad's own ability, nor it expected of the Message he was sent to compel people to embrace Islam.

It was by this principle that the Muslims abided in their relations with non - Muslims. Whenever they conquered a certain country, they granted its people the freedom to stick to their faith on condition they paid the poll - tax. In return for this, most Muslims protected the non - Muslims against aggression, and respected their beliefs, rites and places of worship. A good example in this connection is the pledge that Caliph Omar Ibn Alkhatab made to people of Jerusalem. In his book " history of nations and kings " the Muslim historian Al - Tabari comments on this, saying that Omar "granted them security for their lives, property, churches, crosses, … his instructions were clear that their churches be not used as places of residences or destroyed, nor should any degradation or profanation be practised against churches, crosses and property. … ".

The same pledge had been previously made by Caliph Abu Bakr to the Christians of Najran whom he promised, by command of God and his Prophet, protection for their lives, properties, religious beliefs and rites,

those present and those away, priests and monks, as well as all their belongs, whether little or abundant. They would not be subjected to any loss or hardship, nor would any priest or monk be transferred from his post. It was in full compliance with the promise made to them by the Prophet for always…

Among the signs of the freedom of religious belief are the principles of decorum that Islam established regarding arguments and conversation on religious topics with the People of the Book. God says: "[Believers], argue only in the best way with the People of the Book, except with those of them who act unjustly. Say, 'We believe in what was revealed to us and in what was revealed to you; our God and your God are one [and the same]; we are devoted to Him". (29: 46). "[Prophet], call [people] to the way of your Lord with wisdom and good teaching. Argue with them in the most courteous way, for your Lord knows best who has strayed from His way and who is rightly guided". (16: 125).

God specifies how Muslims should treat non - Muslims, as follows: "God does not forbid you to deal kindly and justly with anyone who has not fought you for your faith or driven you out of your homes: God loves the just. But God forbids you to take as allies those who have fought against you for your faith, driven you out of your homes, and helped others to drive you out: any of you who take them as allies will truly be

wrongdoers". (60: 8 - 9).

God commands Muslims to treat non - Muslims justly and to show kindness to them. Kindness is superior to justice, because the former springs only from compassion, affection and good intent. But God excludes those who oppress Muslims and fight against them, and this sound justice.

However, Islam gives greater weight to conciliation and amity than to hostility and hatred: "God may still bring about affection between you and your present enemies, God is all powerful, God is most forgiving and merciful". (60: 7).

Along the same line and regarding one's obligation to show kindness and gratitude to one's parents. The Koran requests that equal respect be paid to faithful as well as polytheist parent. God says: "We have commanded people to be good to their parents: their mothers carried them, with strain upon strain, and it takes two years to wean them. Give thanks to Me and to your parents– all will return to Me. If they strive to make you associate with Me anything about which you have no knowledge, then do not obey them. Yet keep their company in this life according to what is right, and follow the path of those who turn to Me. You will all return to Me in the end, and I will tell you everything that you have done". (31: 14 - 15).

There is tolerance also when Muslims are permitted to share the food and slaughtered animals of the People of the Book _except pork, blood and dead meat_ as well as the legal marriage by which a Muslim man weds a non - Muslim girl.

God says: “Today all good things have been made lawful for you. The food of the People of the Book is lawful for you as your food is lawful for them. So are chaste, believing, women as well as chaste women of the people who were given the Scripture before you, as long as you have given them their bride - gifts and married them, not taking them as lovers or secret mistresses. The deeds of anyone who rejects faith will come to nothing, and in the Hereafter he will be one of the losers”. (5: 5).

This no doubt leads to good relations and understanding among people. In this connection, the prophet requests that zimmis be will treated: “Opponent to me are all those who offend a zemmi, and such, to whom I am now an opponent, are also my opponent on the Day of Judgment”.

Islam's war against fanaticism:

Islam refutes the fancies that dominated the minds of non - Muslims who adopt the foul attitude of racial fanaticism by claiming themselves as God’s Chosen People and that paradise will be theirs

alone: “The Jews and the Christians say, ‘We are the children of God and His beloved ones.’ Say, ‘Then why does He punish you for your sins? You are merely human beings, part of His creation: He forgives whoever He wills and punishes whoever He wills. Control of the heavens and earth and all that is between them belongs to Him: all journeys lead to Him”(5: 18). In another place of the Koran, we read: “They also say, ‘No one will enter Paradise unless he is a Jew or a Christian’ This is their own wishful thinking. [Prophet], say, ‘Produce your evidence, if you are telling the truth.’ In fact, any who direct themselves wholly to God and do good will have their reward with their Lord: no fear for them, nor will they grieve”. (2: 111 - 112).

The Koran teaches that all humanity deserves divine honor, with no distinction as to color, race, or nationality: “We have honored the children of Adam and carried them by land and sea; We have provided good sustenance for them and favored them specially above many of those We have created”. (17: 70).

On this basis, there is no such thing in Islam as God's Chosen People, it is the whole of humanity that deserves honor according to Divine Will.

Muslim treatment of others:

The Prophet gives a graceful example, in this regard, on the

treatment of the People of the Book. It reported that he used to attend their feasts visit their sicks, welcome their delegations and honor them. He borrowed money from them and mortgaged his personal possessions against his debts. It is said he even died and his shield kept in mortgage with a Jew in Madina, and it was later returned by his successors. He did this not because the Companions could not afford lending him the money he needed, many of them were well - to - do, and ready to sacrifice all they could to satisfy his wishes. The purpose was to set a good example for his nation to follow.

The Muslims followed this good example and they associated with non - Muslims in peace and concord. Christians and Jews neighbored the Muslims and exchanged visits and gifts with them; they only separated in places of worship. Reports say that one servants of Ibn Abass, a reputed companion of the Prophet, once slaughtered an ewe, Ibn Abass told him not to forget giving some of its flesh to their neighbor the Jew, and repeated his request until the servant retorted “how often you request this” he replied: “the prophet makes a special recommendation of neighbors that one fears they might claim the right to inherit”. Ibn Abass was a neighbor of a Jew and he made it a point to take care of him as he did to his other neighbors. This illustrates Islam’s refusal of differentiation between Muslims and non - Muslims.

The Caliphs realized the significance of the free exercise of religious belief. Of these Caliphs, one can mention Omar Ibn Alkhtab who once made his presence at the Church of the Holy Sepulcher in Jerusalem when it was time of prayer. He did not pray there, lest people should take the place as a mosque and wrong the people of the Church.

Early Muslims scholars show special respect to the rights of the People of the Book. They say that the people of the Book should be well - treated and protected against those who try to inflict harm on them. AL_Shehab Al_Qaraphi, for instance, one of the scientific leading authorities in Islam, offers the following in his book “the distinctions”: “the covenant settled with the People of the Book gives them certain rights on our part. They are our neighbors and are under our protection, they are also under the protection of God, His Prophet, and Islam. If one commits aggression against them_ though only through bad words or backbiting or the like _ or just shares in such acts, he violates the protection of God, His Prophet, and Islam”.

In his book “Ranks of unanimity ” Imam Ibn Hazm explains:

“ if some people come to our country after a zimmi to kill him, our duty is to set out to fight them… and offer whatever sacrifice we can for this end, turning him over to them means breaking the covenant settled with the People of the Book”.

Finally in this regard it could be better to quote a testimony on the Islamic tolerance, made by an outstanding scholar (Adam Metz) in his book “Renaissance of islam”: “What distinguishes the Kingdom of Islam from Christian Europe in the Middle Ages is that the latter was inhabited by a great number of those who embraced other religions than Islam, the case of the former was not so. In the Kingdom of Islam, Churches and synagogues remained outside government authority, as if they were not part of the Kingdom, thus depending on previous agreements and the rights that these agreements granted them. It was necessary that Jews and Christians live in the neighborhood of Muslims, which helped to create an atmosphere of tolerance that Europe did not know in the Middle Ages. The Jews or Christians was free to stick their Faith…. ”.

ترجمة لمعاني سورة الحجرات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾

فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ
فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ
يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن
يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ
وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم
بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ
رَّحِيمٞ ١٢

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ
ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣

قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن
تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾

إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

THE PRIVATE ROOMS

Translated by Dr. M.A.S. Abdel Haleem

This Medinan sura takes its title from the reference to the Prophet's private rooms in verse 4. It guides the believers on how to behave with proper respect towards their leader (verses 1–5), and with mutual respect and trust towards each other (verses 9–12). The sura stresses the unity of mankind and God's intention that people should live together in harmony (verse 13). It criticizes the desert Arabs for their presumptuous attitude to their faith and to God (verses 14–18).

In the name of God, the Lord of Mercy, the Giver of Mercy

1 Believers, do not push yourselves forward in the presence of God and His Messenger, be mindful of God: He hears and knows all

2 believers, do not raise your voices above the Prophet's, do not raise your voice when speaking to him as you do to one another, or your [good] deeds may be cancelled out without you knowing.

3 It is those who lower their voices in the presence of God's Messenger whose hearts God has proved to be aware, they will have forgiveness, and a great reward

4 but most of those who shout to you [Prophet] from outside your

private rooms lack understanding.

5 It would have been better for them if they had waited patiently for you to come out to them but God is all forgiving and merciful.

6 Believers, if a troublemaker brings you news, check it first, in case you wrong others unwittingly and later regret what you have done.

7 and be aware that it is God's Messenger who is among you: in many matters you would certainly suffer if he were to follow your wishes. God has endeared faith to you and made it beautiful to your hearts; He has made disbelief, mischief, and disobedience hateful to you. It is people like this who are rightly guided.

8 through God's favour and blessing: God is all knowing and all wise.

9 If two groups of the believers fight, you [believers] should try to reconcile them; if one of them is [clearly] oppressing the other, fight the oppressors until they submit to God's command, then make a just and even - handed reconciliation between the two of them: God loves those who are even - handed.

10 The believers are brothers, so make peace between your two brothers and be mindful of God, so that you may be given mercy.

11 Believers, no one group of men should jeer at another, who

may after all be better than them; no one group of women should jeer at another, who may after all be better than them; do not speak ill of one another; do not use offensive nicknames for one another. How bad it is to be called a mischief - maker after accepting faith! Those who do not repent of this behaviour are evildoers.

12 Believers, avoid making too many assumptions, some assumptions are sinful, and do not spy on one another or speak ill of people behind their backs: would any of you like to eat the flesh of your dead brother? No, you would hate it. So be mindful of God: God is ever relenting, most merciful.

13 People, We created you all from a single man and a single woman, and made you into races and tribes so that you should recognize one another. In God's eyes, the most honoured of you are the ones most mindful of Him: God is all knowing, all aware.

14 The desert Arabs say, 'We have faith.' [Prophet], tell them, 'You do not have faith. What you should say instead is, "We have submitted," for faith has not yet entered your hearts.' If you obey God and His Messenger, He will not diminish any of your deeds: He is most forgiving and most merciful.

15 The true believers are the ones who have faith in God and His Messenger and leave all doubt behind, the ones who have struggled

with their possessions and their persons in God's way: they are the ones who are true.

16 Say, 'Do you presume to teach God about your religion, when God knows everything in the heavens and earth, and He has full knowledge of all things?'

17 They think they have done you [Prophet] a favour by submitting. Say, 'Do not consider your submission a favour to me; it is God who has done you a favour, by guiding you to faith, if you are truly sincere.'

18 God knows the secrets of the heavens and earth: He sees everything you do.

قائمة بأهم المفاهيم والتراكيب الاصطلاحية

Faith	إيمان
Jew	يهودي
Christian	مسيحي
Church	كنيسة
Synagogue	كنيس يهودي
Religion	دين
People of the Book	أهل الكتاب
Middle Ages	العصور الوسطى
Testimony	شهادة
Islamic tolerance	التسامح الإسلامي
Renaissance of Islam	نهضة الإسلام
Unanimity	إجماع
Covenant	ميثاق
Protection	حماية
Aggression	عدوان
Backbiting	غيبة
Authority	سلطة
outstanding scholar	عالم بارز
time of prayer	وقت الصلاة
places of worship	أماكن العبادة

Recommendation	توصية
the Companions	الصحابة
Peace	السلم
Mortgage	رهن
Nation	أمة
good example	أسوة حسنة
Concord	انسجام
personal possessions	ممتلكات شخصية
Delegation	وفد
Divine Will	إرادة إلهية
Distinction	تمييز
Day of Judgment	يوم الحساب
Fanaticism	التعصب
Humanity	إنسانية
Paradise	الجنة
Sin	ذنب
racial fanaticism	تعصب
Attitude	موقف
God’s Chosen People	شعب الله المختار
Muslims scholars	علماء مسلمون
the Rights	الحقوق

Hereafter	الاخرة
good relations	علاقات طيبة
legal marriage	زواج شرعي
Scripture	كتاب مقدس
Chaste	طاهرة عفيف
Lawful	شرعي
Hostility	عداوة
Faithful	مؤمن
Polytheist	مشرك
Hatred	كراهية
Conciliation	توفيق بين الناس
Amity	صداقة
good intent	نية طيبة
Wrongdoer	ظالم
Gratitude	امتنان
Degradation	انحطاط خلقي وفكري
Profanation	تدنيس للمقدسات
Property	ملكية
religious beliefs	عقائد دينية
Wisdom	حكمة
firmest hand - hold	العروة الوثقى

Instructions	تعليمات
coercive means	وسائل إكراه
no compulsion in religion	لا إكراه في الدين
Sect	طائفة
Decorum	لياقة
Sayings of the prophet	أقوال النبي صلى الله عليه وسلم
religious freedom	الحرية الدينية
biography of the prophet	سيرة النبي صلى الله عليه وسلم
religious disagreement	نزاع ديني
Monk	راهب
Rites	شعائر
poll - tax	ضريبة الجزية
Principle	مبدأ
Tolerance	تسامح
deliverance of slaves	تحرير العبيد
Beneficence	الإحسان
Ignorance	الجهل
Orphans	يتيم
Needy	محتاج
Mercy	رحمة
Patience	صبر

Arrogant	متكبر
Devotion	ورع
amity,	صداقة
Esteem	اعتبار
Affection	مودة
Reformer	مصلح
Charity	عمل الخير
Creator	الخالق سبحانه
Generosity	كرم
Stability	استقرار
the truth	الحقيقة
Despair	يأس
Prosperity	فلاح ازدهار
Dignity	كرامة
Legislator	مشرع
Evil	شر
Good	خير
Deceit	خداع
Society	مجتمع
Welfare	مصلحة عامة
Individual	فرد

Community	جماعة
Ethics	علم الأخلاق
basic pillar	ركن أساسي
Morality	أخلاق
God’s contentment	رضا الله سبحانه
Foundation	أساس
Necessity	ضرورة
outside factors	دوافع خارجية
inner motives	دوافع داخلية
temptation of evil	إغواء الشيطان
Righteousness	استقامة
Corruption	فساد
Peace	سلام
Vice	رذيلة
Repentance	توبة
Cleanliness	طهارة
Forgiveness	مغفرة
Negligence	إهمال
Envy	حسد
Deprived	محروم
charitable donation	صدقة

Philanthropist	محسن
Justice	عدل
Tenderness	حنان
Repulsion	نفور
Dejection	غمّ
Sensitivity	حساسية
Conscience	ضمير

الحمد لله رب العالمين

Publications de l'Université de Damas

Collège de charia

la quatrième année

Ethique et auto purification

Partie de la langue française

Université de Damas **2020 - 2021**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

LE SYSTEME MORAL DE L'ISLAM

L’Islam a établi un certain nombre de droits fondamentaux, valables pour l’humanité toute entière et qui doivent être observés et respectés en toutes circonstances.

Dans ce but, l’Islam fournit, non seulement des garanties juridiques, mais aussi tout un système moral très efficace. Ainsi, pour l’Islam tout ce qui conduit au bien - être de l’individu ou de la société est moralement bon, et tout ce qui lui est nuisible est moralement mauvais. L’Islam attache tant d’importance à l’amour de Dieu et à l’amour de l’homme qu’il met en garde contre trop de formalisme.

Nous lisons dans le Coran: "La piété ne consiste pas à tourner vos faces vers l’Orient ou vers l’Occident. Mais la piété, c’est de croire en Dieu, au Jour Dernier, aux Anges, à l’Écriture et aux prophètes. C’est d’apporter - pour l’amour de Dieu - un témoignage de générosité à ses proches, à l’orphelin, au pauvre,

à l'étranger de passage, à ceux qui implorent un secours, et pour le rachat des captifs.

C'est la vertu de ceux qui observent la Prière et l'Aumône, respectent les engagements conclus, et sont patients dans l'adversité et au moment du danger: voilà les Croyants véridiques et voilà ceux qui craignent Dieu!" (Sourate 2, verset 177).

Nous avons là une belle description du croyant vertueux et qui, craignant Dieu, obéit aux préceptes salutaires mais sans cesser de fixer son regard sur l'amour de Dieu et de son prochain.

C'est la volonté divine, en tant qu'expression de la vérité absolue et de la justice parfaite qui s'impose, et non un commandement abstrait émanant d'une autorité morale suprême mais mal définie.

Donc, la distinction entre "l'obligation juridique" et "le devoir éthique" n'existe pas en Islam: les deux sont intimement liés, pour affirmer la force du système.

Nous avons reçu quatre préceptes:

1. Notre foi doit être vraie et sincère.

2. Nous devons être préparés à le montrer par des actes de

charité envers notre prochain, et non par un "habit" de piété.

3. Nous devons être de bons citoyens et apporter notre soutien aux organisations sociales.

4. Notre âme doit être ferme et inébranlable en toutes circonstances.

Car découlant de ce monothéisme eschatologique, Dieu Seul est le pilier du système moral de l'Islam: vers Lui se fera l'ultime retour, et Lui Seul nous rétribuera.

C'est là le critère selon lequel tout comportement individuel est jugé comme bon ou mauvais. Ce critère est en quelque sorte le noyau autour duquel viennent s'articuler tous les éléments qui constituent la conduite morale de chacun.

Avant d'établir des préceptes moraux, l'Islam cherche à implanter fermement dans le cœur de l'homme, la conviction qu'il est en constant rapport avec Dieu, Qui le voit à tout moment et en tout lieu.

Il peut se cacher du monde entier, mais pas de Dieu.

Il peut tromper n'importe qui, mais pas Dieu. Il peut fuir l'emprise de n'importe qui, mais pas celle de Dieu.

Ainsi, en faisant de "ce qui plaît à Dieu" l'objectif premier de toute vie humaine, l'Islam a posé le critère de moralité le

plus élevé qui soit, ouvrant ainsi à l'évolution morale de l'humanité des perspectives illimitées.

Voyant dans la révélation divine la source première de toute connaissance, l'Islam donne permanence et stabilité aux principes moraux qui, bien que laissant une marge raisonnable pour certaines adaptations et innovations, excluent les perversions, les déviations, les mœurs dissolues, le relativisme atomiste ou le relâchement de la vie morale.

Il fournit une sanction à la moralité par l'amour et la crainte de Dieu qui incitent l'homme à obéir à la loi morale sans aucune pression extérieure.

À travers la croyance en Dieu et au Jour du Jugement, l'Islam fournit une force qui permet à chacun d'adopter une conduite morale et sincère de tout son cœur et de toute son âme.

Il ne cherche pas à inventer, à travers quelque fausse originalité ou innovation, des vertus morales nouvelles, ni à minimiser l'importance des normes morales bien connues.

Il ne confère pas non plus, une importance exagérée à certaines normes tout en négligeant certaines autres sans raison.

Il reprend toutes les vertus morales communément connues et, avec un sens remarquable de l'équilibre et des

proportions, il assigne à chacune d'elles une place et une fonction convenables dans le schéma global de la vie.

Il élargit l'horizon de la vie humaine individuelle et collective, son existence domestique, sa conduite civique, ses activités dans les domaines politique, économique, législatif, éducatif et social.

Il couvre la totalité de son existence (de la maison à la vie en société, de la table au champ de bataille et aux conférences sur la paix), depuis le berceau jusqu'au tombeau.

En bref, aucune sphère de sa vie, n'échappe à l'application universelle et infiniment vaste des principes moraux de l'Islam.

Ainsi, grâce à cette suprématie de la moralité, toutes les choses de la vie, au lieu d'être dominées par des désirs égoïstes et mesquins, sont réglées par des normes morales.

L'Islam se fonde, par essence, sur la Justice, et non seulement sur l'Amour, car ce dernier est subjectif et la Justice normative.

Cette Justice confère à l'Homme des droits, mais encore plus, des devoirs.

La Déclaration des droits de l'Homme nous dit que chacun a droit au travail, droit au respect, droit à la culture; l'Islam

nous dit aussi cela, mais en plus l'Islam nous dit que chacun a le devoir de rechercher du travail, le devoir de respecter autrui, le devoir de chercher le Savoir. **Simple addition, grande différence.**

L'Islam érige un système de vie fondé sur tout ce qui est bon, en rejetant tout ce qui est mauvais.

Il exhorte les individus non seulement à pratiquer la vertu mais aussi à la faire triompher, à éliminer le vice, à tendre et exhorter vers le Bien et à empêcher le Mal.

Il veut la suprématie du verdict de la conscience et ordonne que la vertu, ne soit pas soumise au mal.

Ceux qui répondent à cet appel, sont groupés dans une communauté et portent le nom de Musulmans.

Le but qui préside à la formation de cette communauté (Oummah) est un effort organisé en vue d'établir et de cultiver le Bien, de supprimer et éliminer le Mal.

On trouvera ici quelques renseignements moraux fondamentaux, se rapportant à différents aspects de la vie d'un Musulman.

Ils couvrent aussi bien une large gamme de la conduite morale personnelle du Musulman que ses responsabilités

sociales.

Conscience de Dieu:

Le Coran stipule que cette conscience est la plus haute qualité que puisse posséder un Musulman:

“Le plus noble d’entre vous, auprès d’Allah, est le plus pieux” (Sourate 49, verset 13)

L’humilité, la modestie, le contrôle des passions et des désirs, la vérité, l’intégrité et la patience, la persévérance et le maintien des promesses sont des valeurs morales, soulignées sans cesse dans le Coran:

“ ... et Allah aime les endurants” (Sourate 3, verset 146)

“Et concourez au pardon de votre Seigneur, et à un Jardin (paradis) large comme les cieux et la terre, préparé pour les pieux, qui dépensent (pour plaire à Dieu) dans l’aisance comme dans l’adversité, qui dominent leur colère et pardonnent à autrui - car Allah aime les bienfaisants - ” (Sourate 3, versets 133 - 134)

“ ... accomplis la Salat (prière), commande le convenable, interdis le blâmable et endure ce qui t’arrive avec patience. Telle est la résolution à prendre en toute entreprise.

Et ne détourne pas ton visage des hommes, et ne foule pas

la terre avec arrogance: car Allah n'aime pas le présomptueux plein de gloriole. Sois modeste dans ta démarche, et baisse ta voix, car la plus détestée des voix, c'est bien la voix des ânes" (Sourate 31, versets 17 - 19)

D'une façon qui résume le comportement moral d'un Musulman, le Prophète (que la Paix et la Bénédiction soient avec lui) a dit: "Le Seigneur m'a donné sept commandements pour rester conscient de Dieu, que ce soit en privé ou en public:

1. de parler avec justesse, que je sois en colère ou joyeux,

2.être modéré aussi bien pauvre que riche,

3. de renouer l'amitié avec ceux qui l'ont rompue avec moi,

4. de donner à celui qui me refuse,

5. que mon silence soit rempli de pensée,

6. que mon regard soit une admonition,

7. que je commande ce qui est juste".

Responsabilités socials:

Les enseignements de l'Islam concernant les responsabilités sociales sont fondés sur la bonté et la

considération pour autrui.

l'Islam insiste sur les actes spécifiques de bonté et définit les responsabilités et les droits de chacun dans les différents types de relation.

Dans un cercle grandissant de relations, notre première obligation va à la famille proche (les parents, le conjoint et les enfants) ensuite aux autres relations (les voisins, les amis, les connaissances, les orphelins et les veuves, ceux de la communauté qui sont dans le besoin, nos frères et sœurs musulman(e)s et tous nos semblables, enfin les animaux).

Les parents:

L'islam insiste beaucoup sur le respect envers les parents, qui est une partie très importante de la foi d'un musulman.

« Et votre Seigneur a décrété de n'adorer que Lui et d'être bon envers ses parents. Si l'un d'eux ou tous les deux atteignent la vieillesse auprès de toi, garde - toi de leur dire ne serait - ce que « fi! » ou de leur manquer de respect. Adresse - leur toujours des paroles respectueuses. Fais preuve d'humilité vis - à - vis d'eux, témoigne - leur ta tendresse et dis:

« Ô mon Seigneur! Sois miséricordieux envers eux, car ils m'ont élevé lorsque j'étais petit. » (Coran 17: 23 - 24).

Autres parents:

« Et donne au proche parent ce qui lui est dû, ainsi qu'au pauvre et au voyageur. Et ne gaspille pas tes biens indûment ... » (Coran 17: 26)

Les voisins:

Le Prophète a dit:

« N'est pas croyant celui qui se remplit la panse alors que son voisin a faim. »

« N'est pas croyant celui dont les voisins ne sont pas à l'abri de son comportement nuisible. » (sahih al - Boukhari).

La morale islamique, bienveillance envers l'Univers:

Selon le Coran et la sounnah, le musulman a une responsabilité morale non seulement envers ses parents, les membres de sa famille et ses voisins, mais envers l'humanité tout entière, la flore et la faune y compris. Par exemple, chasser des oiseaux et des animaux par pur loisir est interdit.

De même, couper des arbres ou des plantes qui portent des fruits n'est pas permis à moins qu'il ne soit vraiment nécessaire de le faire.

L'islam établit donc un système de moralité plus élevé que tous les autres, par lequel l'humanité peut exploiter tout son

potentiel. L'islam purifie l'âme de l'égotisme, de la tyrannie, de la dépravation et de l'indiscipline.

Il élève la conscience de Dieu chez les croyants, fait d'eux des gens dévoués à leurs idéaux, pieux, abstinents, disciplinés, qui ne font aucun compromis en ce qui a trait à la vérité.

Il rend les gens moralement responsables et développe chez eux une grande maîtrise de soi.

L'islam suscite chez les gens la gentillesse, la générosité, la miséricorde, la sympathie, la paix, la bienveillance désintéressée, la justice et la vérité envers toute la création, en toutes circonstances.

Il nourrit chez les gens de nobles qualité desquelles ne peut découler que du bien.

Tel est l'Islam qui doit vivre en chaque musulman.

ترجمة لمعاني سورة الحجرات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾

فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ
فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ
يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن
يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ
وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم
بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ
رَّحِيمٞ ١٢

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ
ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣

قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن
تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾

إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

AL - HUJURAT (LES APPARTEMENTS)

18 versets - Post - Hégire

Au nom d'Allah, le Tout Miséricordieux, le Très Miséricordieux.

1. ô vous qui avez cru ! Ne devancez pas Allah et Son messager . Et craignez Allah. Allah est Audient et Omniscient.

2. ô vous qui avez cru ! N'élevez pas vos voix au - dessus de la voix du Prophète, et ne haussez pas le ton en lui

parlant, comme vous le haussez les uns avec les autres, sinon vos oeuvres deviendraient vaines sans que vous vous en rendiez compte.

3. Ceux qui auprès du Messager d'Allah baissent leurs voix sont ceux dont Allah a éprouvé les coeurs pour la piété. Ils auront un pardon et une énorme récompense.

4. Ceux qui t'appellent à haute voix de derrière les appartements, la plupart d'entre eux ne raisonnent pas.

5. Et s'ils patientaient jusqu'à ce que tu sortes à eux, ce serait certes mieux pour eux. Allah cependant, est

Pardonneur et Miséricordieux.

6. ô vous qui avez cru ! Si un pervers vous apporte une nouvelle, voyez bien clair [de crainte] que par inadvertance vous ne portiez atteinte à des gens et que vous ne regrettiez par la suite ce que vous avez fait.

7. Et sachez que le Messager d'Allah est parmi vous. S'il vous obéissait dans maintes affaires, vous seriez en difficultés. Mais Allah vous a fait aimer la foi et l'a embellie dans vos coeurs et vous a fait détester la mécréance, la perversité et la désobéissance. Ceux - là sont les bien dirigés.

8. c'est là en effet une grâce d'Allah et une bienfait. Allah est Omniscient et Sage.

9. Et si deux groupes de croyants se combattent, faites la conciliation entre eux. Si l'un d'eux se rebelle contre l'autre, combattez le groupe qui se rebelle, jusqu'à ce qu'il se conforme à l'ordre d'Allah. Puis, s'il s'y conforme, réconciliez - les avec justice et soyez équitables car Allah aime les équitables.

10. Les croyants ne sont que des frères. établissez la concorde entre vos frères, et craignez Allah, afin qu'on vous fasse miséricorde.

11. ô vous qui avez cru ! Qu'un groupe ne se raille pas d'un autre groupe: ceux - ci sont peut - être meilleurs qu'eux. Et que des femmes ne se raillent pas d'autres femmes: celles - ci sont peut - être meilleures qu'elles. Ne vous dénigrez pas et ne vous lancez pas mutuellement des sobriquets (injurieux). Quel vilain mot que “perversion” lorsqu'on a déjà la foi . Et quiconque ne se repent pas ... Ceux - là sont les injustes.

12. ô vous qui avez cru ! évitez de trop conjecturer [sur autrui] car une partie des conjectures est péché. Et n'espionnez pas; et ne médisez pas les uns des autres. L'un de vous aimerait - il manger la chair de son frère mort? (Non !) vous en aurez horreur. Et craignez Allah. Car Allah est Grand Accueillant au repentir, Très Miséricordieux.

13. ô hommes ! Nous vous avons créés d'un mâle et d'une femelle, et Nous avons fait de vous des nations et des tribus, pour que vous vous entreconnaissiez. Le plus noble d'entre vous, auprès d'Allah, est le plus pieux. Allah est certes Omniscient et Grand - Connaisseur.

14. Les Bédouins ont dit: “Nous avons la foi”. Dis: “Vous n'avez pas encore la foi. Dites plutôt: Nous nous sommes simplement soumis, car la foi n'a pas encore pénétré dans vos

coeurs. Et si vous obéissez à Allah et à Son messager, Il ne vous fera rien perdre de vos oeuvres". Allah est Pardonneur et Miséricordieux.

15. Les vrais croyants sont seulement ceux qui croient en Allah et en Son messager, qui par la suite ne doutent point et qui luttent avec leurs biens et leurs personnes dans le chemin d'Allah. Ceux - là sont les véridiques.

16. Dis: "Est - ce vous qui apprendrez à Allah votre religion, alors qu'Allah sait tout ce qui est dans les cieux et sur la terre ? " Et Allah est Omniscient.

17. Ils te rappellent leur conversion à l'Islam comme si c'était une faveur de leur part. Dis: " Ne me rappelez pas votre conversion à l'Islam comme une faveur. C'est tout au contraire une faveur dont Allah vous a comblés en vous dirigeant vers la foi, si toutefois vous êtes véridiques".

18. Allah connaît l'Inconnaissable des cieux et de la terre et Allah est Clairvoyant sur ce que vous faites.

قائمة بأهم المفاهيم والتراكيب الاصطلاحية

Sympathie	تعاطف
Miséricorde	رحمة
Bienveillance	رفق
Creation	خلق
Gentillesse	لطف
Générosité	كرم
Les voisins	جيران
l’égotisme	غرور
Tyrannie	استبداد
Indiscipline	عدم انضباط
comportement moral	سلوك أخلاقي
Depravation	فساد أخلاقي
Bienfaisants	إحسان
Colère	غضب
Arrogance	تكبر
le convenable	المعروف
le blamable	المنكر
orphelins	أيتام
considération pour autrui	تقدير الآخرين

La Déclaration des droits de l'Homme	إعلان حقوق الإنسان
la bonté	الطيبة
l'amour de Dieu	حب الله سبحانه
la piété	تقوى
responsabilités sociales	مسؤوليات اجتماعية
renseignements moraux	تعليمات أخلاقية
Formalisme	الشكلية
l'humanité	الإنسانية
droit au travail	حق العمل
l'obligation juridique	الواجب القانوني
les mœurs	الأخلاق
principes moraux	مبادئ أخلاقية
la révélation divine	الوحي الإلهي
l'amitié	الصداقة
Verdict de la conscience	حكم الضمير
la vérité absolue	الحقيقة المطلقة
autorité morale	السلطة الأخلاقية
justice parfait	العدالة التامة
la volonté divine	الإرادة الإلهية
la Prière	الصلاة

l’Aumône	الصدقة
Monothéisme	التوحيد
Charité	عمل الخير
devoir éthique	الواجب الأخلاقي
Deviations	الانحرافات
préceptes moraux	قواعد أخلاقية
organisations socials	منظمات اجتماعية
bon citoyen	مواطن صالح
l’évolution morale	التطور الأخلاقي
conduite morale	سلوك أخلاقي
Passions	أهواء
le Mal	الشر
le Bien	الخير
Vertu	فضيلة
le devoir de rechercher du travail	واجب البحث عن العمل
le devoir de respecter autrui	واجب احترام الآخرين
valeurs morales	قيم أخلاقية
la modestie	تواضع
Désirs	رغبات
la vérité	الحقيقة

l’intégrité	نزاهة
la patience	الصبر
Perseverance	مثابرة
Guaranties juridiques	ضمانات قانونية
Pensée	فكر
Nuisible	ضار
système moral	نظام أخلاقي
Droits fondamentaux	حقوق أساسية
la croyance en Dieu	الإيمان بالله تعالى
Domaine politique	مجال سياسي
Domaine économique	مجال اقتصادي
Domaine législatif	مجال تشريعي
Domaine éducatif	مجال تربوي
Domaine social	مجال اجتماعي
suprématie de la moralité	سيادة الأخلاق
le vice	الرذيلة
le relativisme	النسبية
Égoïste	أناني
Equilibre	توازن